دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	التوازن في ضوء القرآن الكريم
المؤلف الرئيسي:	اليحيصي، عبدالسلام محمد عبدالله
مؤلفين آخرين:	عباس، عباس عوض اللهِ(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2010
موقع:	أم درمان
الصفحات:	1 - 407
رقم MD:	562557
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة أم درمان الاسلامية
الكلية:	كلية أصول الدين
الدولة:	السودان
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	القرآن الكريم ، تفسير القرآن ، الوسطية الإسلامية ، العقيدة الإسلامية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/562557

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الباب الأول
معنى التوازن ومقاصده في القرآن الكريم

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: معنى التوازن.

الفصل الثاني: مقاصد التوازن في القرآن الكريم.

الفصل الأول
معنى التوازن

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف التوازن في اللغة والاصطلاح.

المبحث الثاني: الألفاظ والمصطلحات القرآنية الدالة على معنى التوازن لغويا.

المبحث الثالث: حدود التوازن.

المبحث الأول

تعريف التوازن في اللغة والاصطلاح

إن التوازن في القرآن الكريم مصطلحٌ له دلالات واسعة، ومعان متعددة، وسيتم تناوله بشئ من التفصيل من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية، حتى تتضح معالمه، وتتبين مدلولاته، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: التوازن في اللغة:

«الواو، والزاء، والنون بناءٌ صحيح يدل على تعديل واستقامة»[١].

والتصاريف لهذا البناء تدل على معان متعددة تدل على التوازن وتشير إليه

«يقال: وزَن الشيء: إذا قدّره. ووزَن ثمر النخل: إذا خرصه»[٢].

«ووزَن الشعر: قطّعه وميّز بين ثقله وخفته ونظمه موافقاً للميزان العروضي.

ووازَن الشيءَ الشيءَ: ساواه في الوزن، وعادله، وقابله، وحاذاه.

ووازن فلاناً: كافأه على فعاله.

واتَّزن العِدل: اعتدل بالآخر، وصار مساوياً له في الثقل والخفة.

وتوازَن الشيئان: تساويا في الوزن»[٣].

«ودرهمٌ وازِنٌ: أي تامٌّ»[٤].

«وشيءٌ موزون: جرى على وزن، أو مقدّرٌ معلومٌ»[٥].

«ومن المجاز استقام ميزان النهار: انتصف...

وفلان راجح الوزن: موصوف برجاحة العقل، والرأي»[٦].

«ورجلٌ وزين الرأي، وقد وزَن وزانة: إذا كان متثبتاً»[١].

---

(١) أبو الحسين أحمد بن زكريا: معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، (ج٦، ص١٠٧).

(٢) محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب. دار صادر، بيروت، ط١، (د – ت)، (ج١٣، ص٤٤٧).

(٣) أنظر: إبراهيم مصطفى، وأحمد الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد النجار: المعجم الوسيط. تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٢، ص١٠٢٩، ١٠٣٠).

(٤) إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، يناير ١٩٩٠م، (ج٦، ص٢٢١٣).

(٥) محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق: مجموعة من المحققين، =

= دار الهداية، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٣٦، ص٢٥٤).

(٦) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري: أساس البلاغة. دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، (ج١، ص٦٧٤).

«ووزين الرأي: معتدله»[٢]،«وفلان أوزن بني فلان: أي أوجههم»[٣].
«وأوزن نفسه على الأمر: وطّنها عليه»[٤]، «وهو أوزن من غيره: أي أقوى، وأمكن. والميزان – بالكسر –: الآلة التي تُوزن بها الأشياء، والعدل، والكتاب الذي فيه أعمال الخلق، والمقدار»[٥].

«وجائز أن يقال للميزان الواحد بأوزانه وجميع آلته: الموازين، قال الله عز وجل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٦] يريد: نضع الميزان ذا القسط»[٧].

والخلاصة أن التوازن في اللغة يأتي لمعاني متعددة، وهي كالآتي:

١. التقدير، والعدل، والتوافق، والتثبت، والانتصاف، والتوطين، والتمام.
٢. المعادلة، والمقابلة، والمساواة، والمكافأة، والمحاذاة.
٣. الوجاهة، والرجاحة في العقل والرأي.
٤. الأقوى، والأمكن.
٥. الكتاب الذي فيه أعمال الخلق، والآلة التي توزن بها الأشياء.

ثانيا: التوازن في الاصطلاح:

وحتى يتمكن الباحث من الوصول إلى معرفة حد للتوازن فسيستعرض قبل ذلك أقوال المفسرين في الألفاظ القرآنية المتصرفة من مادة (وزَن)، وذلك بحسب تفسيرهم للآيات التي تضمّنت التصاريف لهذا البناء وهي كالآتي:

---

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين. تحقيق د.مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٧، ص ٣٨٦).

(٢) أبو الحسين أحمد بن زكريا: معجم مقاييس اللغة. مرجع سابق، (ج٦، ص١٠٧).

(٣) ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق، (ج١٣، ص٤٤).

(٤) إبراهيم مصطفى، وغيره: المعجم الوسيط. مرجع سابق، (ج٢، ص١٠٢٩).

(٥) أنظر: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس. مرجع سابق، (ج٣٦، ص٢٥٢، ٢٥٣).

(٦) سورة الأنبياء، الآية ٤٧.

(٧) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري: تهذيب اللغة. تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، (ج١٣، ص١٧٦).

(الميزان)،(الوزن)،(الموازين)،(موازينه)،(وَزَنُوا)،(موزون)،(زنُوا)،(وزْناً).

أ- كلمة (الميزان):

ورد لفظ الميزان في سور: الأنعام، الآية١٥٢، والأعراف، الآية٨٥، وهود، الآية ٨٤- ٨٥، والشورى، الآية١٧، والرحمن، الآيات٧ – ٩، والحديد، الآية ٢٥.

وسيتناول الباحث أقوال العلماء في تفسيرهم لهذا اللفظ على النحو الآتي:

- **الميزان المقترن بالكيل أو المكيال:**

ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾[1].

وفي قوم شعيب -عليه السلام- قوله تعالى: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [3].

وقد قال الطبري[4] في تأويل قوله تعالى:﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾، أي «لا تبخسوا الناس الكيل إذا كلتموهم والوزن إذا وزنتموهم، ولكن أوفوهم حقوقهم. وإيفاؤهم ذلك إعطاؤهم حقوقهم تامة بالقسط، يعني بالعدل»[5].

وفي قوله تعالى:﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾[6]«أمرهم بإيفاء الكيل والميزان؛ لأنهم كانوا أهل معاملة بالكيل والوزن وكانوا لا يوفونهما، وذكر الكيل الذي هو المصدر

---

(1) سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

(2) سورة الأعراف، الآية ٨٥.

(3) سورة هود، الآية ٨٤، ٨٥.

(4) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، المفسر أبو جعفر، ولد أول سنة خمس أو آخر سنة أربع وعشرين ومأتين، صاحب التصانيف الباهرة، مات سنة عشر وثلاثمائة. أنظر: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي: لسان الميزان. تحقيق: دائرة المعرف النظامية، الهند، دار النشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٣، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، (ج٥، ص١٠٠- ١٠٣)، وأحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد. دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٢، ص١٦٢- ١٦٦).

(5) محمد بن جرير بن يزيد الطبري أبو جعفر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. دار الفكر، بيروت، طبعة = = بدون ترقيم، ١٤٠٥ هـ، (ج٨، ص٨٦).

(6) سورة الأعراف، الآية ٨٥.

وعطف عليه الميزان الذي هو اسم للآلة، واختلف في توجيه ذلك، فقيل: المراد بالكيل: المكيال،فتناسب عطف الميزان عليه، وقيل: المراد بالميزان: الوزن، فيناسب الكيل»[1].

«فإن قلت: كيف قيل الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ؟ وهلا قيل: المكيال والميزان كما في سورة هود عليه السلام! قلت: أريد بالكيل آلة الكيل وهو المكيال أو سمي ما يكال به الكيل كما قيل: العيش لما يعاش به أو أريد فأوفوا الكيل ووزن الميزان، ويجوز أن يكون الميزان كالميعاد والميلاد بمعنى المصدر»[2].

وفي قوله تعالى:﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾[3]، أي بالعدل من غير زيادة ولا نقصان؛ ذلك لأن الزيادة في الكيل والوزن تفضلا يكون مندوبا إليه، لكنها في الآلة تصبح محظورة كالنقص، وبالتالي فلعل الزائد أن يكون للاستعمال عند الاكتيال، والناقص للاستعمال وقت الكيل، ولهذا جاء الأمر بتعديلهما صريحا.

وإنما أمر بتسويتهما بعد النهي عن نقصهما مبالغة في الحمل على الإيفاء والمنع من البخس. وتنبيها على أنه لا يكفيهم مجرد الكف عن النقص والبخس، بل يجب عليهم إصلاح ما أفسدوه وجعلوه معيارا لظلمهم وقانونا لعدوانهم[4].

- **الميزان الموضوع المنزل من السماء:**

ورد لفظ الميزان المقترن بالوضع في قوله تعالى:﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ ﴾[5].

---

(1) محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. دار الفكر، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٢، ص٢٢٤).

(2) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٢، ص١٢٠).

(3) سورة هود، الآية ٨٥.

(4) أنظر: أبو السعود محمد بن محمد العمادي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٤، ص٢٣١).

(5) سورة الرحمن، الآية ٧– ٩.

وورد لفظ الميزان المنزل من السماء في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ ﴾[1]، وفي قوله تعالى:﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾[2].

فأما تأويل قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾، أي خلفه موضوعا على الأرض لتوزن به الأشياء وتعرف مقاديرها من ميزان، وقرسطون، ومكيال، ومقياس. حيث علق به أحكام عباده من التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم.

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾، أي لئلا تطغوا، أو هي أن المفسرة،﴿ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾، أي ولا تنقصوه، فقد أمر بالتسوية، ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة عن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان، وكرر لفظ الميزان تشديدا للتوصية به، وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه[3].

وقال الشوكاني[4]: المراد بالميزان: العدل. أي وضع في الأرض العدل الذي أمربه.

قال الزجاج[5]: المعنى أنه أمرنا بالعدل، ويدل عليه قوله: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾، أي لا تجاوزوا العدل. وقيل: المراد به آلة الوزن ليتوصل بها إلى الإنصاف. وقيل: الميزان القرآن لأن فيه بيان ما يحتاج إليه.

---

(1) سورة الشورى، الآية ١٧.

(2) سورة الحديد، الآية ٢٥.

(3) أنظر: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي: تفسير النسفي المسمى: مدارك التنزيل وحقائق التأويل. (د – ن)، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٤، ص٢٠٠).

(4) هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، ولد بهجرة شوكان من بلاد خولان باليمن سنة ١١٧٣هـ، ونشأ بصنعاء، وولي قضاءها سنة ١٢٢٩هـ، له ١١٤ مؤلفا، منها: فتح القدير في التفسير وغيره، توفي وهو حاكم بصنعاء سنة ١٢٥٠هـ. أنظر: خير الدين الزركلي: الأعلام. دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، مايو ١٩٨٠م، (ج٦، ص٢٩٨).

(5) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري بن سهل الزجاج النحوي، أخذ الأدب عن المبرد وثعلب، وكان يخرط الزجاج ثم تركه واشتغل بالأدب فنسب إليه، من مصنفاته: كتاب في معاني القرآن وغيره، توفي يوم =

= الجمعة تاسع عشر جمادي الآخرة سنة عشر ،وقيل: سنة إحدى عشرة، وقيل: سنة ست عشرة وثلاثمائة

وقيل: المعنى أنه وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال، و(أن)في قوله:﴿ أَلَّا تَطْغَوْا﴾ مصدرية. أي لئلا تطغوا، و(لا) نافية. أي وضع الميزان لئلا تطغوا، وقيل: هي مفسرة؛ لأن في الوضع معنى القول. والطغيان: مجاوزة الحد.

فمن قال: الميزان العدل، قال: طغيانه الجور، ومن قال: الميزان الآلة التي يوزن بها، قال: طغيانه البخس. ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾: أي لا تنقصوه.

فأمر سبحانه أولا بالتسوية، ثم نهى عن الطغيان الذي هو المجاوزة للحد بالزيادة، ثم نهى عن الخسران الذي هو النقص والبخس[1].

وأما قوله تعالى:﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾[2]، فقد جمع الشوكاني أقوال المفسرين في المراد بمعنى الميزان في الآية، وهي كما يلي:

أن المراد بالميزان: العدل. وهو قول أكثر المفسرين، وسمي العدل ميزانا؛ لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الخلق.

وقيل: الميزان هو ما بين في الكتب المنزلة مما يجب على كل إنسان أن يعمل به.

وقيل: إنه الميزان نفسه أنزله الله من السماء وعلم العباد الوزن به لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس، كما في قوله: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[3].

وقيل: الميزان هو الجزاء على الطاعة بالثواب، وعلى المعصية بالعقاب[4].

ولا تناقض بين هذه الأقوال، فكل ما يدل على الإنصاف والتسوية من الأمور المحسوسة والمعنوية مما به تستقيم الأمور وتوزن به الأشياء، فإنه يدخل في الميزان

ببغداد، وقد أناف على ثمانين سنة. أنظر: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج١، ص٤٩، ٥٠).

(١) أنظر: الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج٥، ص١٣٢).

(٢) سورة الشورى، الآية ١٧.

(٣) سورة الحديد، الآية ٢٥.

(٤) أنظر: الشوكاني. المرجع نفسه، (ج٤، ص٥٣١).

ولا يخرج عنه، وبالتالي فالعدل هو ميزان الله الذي أقام به الوجود وأمر العباد أن يزنوا به أمورهم، وما جاء في الكتب من أمر ونهي هو ميزان كذلك يزن به العبد كل ما يصدر منه من أفعال على وفق ما شرعه الله، ولذلك ترتب على مخالفة ميزان الشرع العقاب، وترتب على الاستقامة عليه الثواب، وذلك وفق ميزان أخروي قائم بالقسط، وبالتالي فآلة الوزن هي أداة ضبط القياس للموزونات، وعلى وفق قياسها تقاس عامة الموازين وإن اختلفت صورها.

وقد بين السعدي[1] المراد بالميزان بقوله: «وأما الميزان: فهو العدل.

والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيح، فكل الدلائل العقلية من الآيات الأفقية والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات، والعلل، والأحكام، والحكم داخلة في الميزان الذي أنزله الله تعالى ووضعه بين عباده ليزنوا به ما أثبته وما نفاه من الأمور. ويعرفوا به صدق ما أخبر به وأخبرت به رسله مما خرج عن هذين الأمرين عن الكتاب والميزان»[2].

وقال الفخر الرازي[3] في تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[4]، فإن النظير لهذه الآية هو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾[5].

---

(1) هو عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي، ولد سنة ١٣٠٧ هـ/ ١٨٩٠م في عنيزة – بالقصيم – وهو مفسر من علماء الحنابلة من أهل نجد، له نحو ثلاثين كتابا منها: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، توفي في مكان مولده سنة ١٣٧٦ هـ/١٩٥٦م. أنظر: الزركلي: الأعلام. مرجع سابق، (ج٣، ص٣٤٠).

(2) أنظر: عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. تحقيق ابن عثيمين، مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة بدون ترقيم، ١٤٢١ هـ/٢٠٠٠ م، (ج١، ص٧٥٦).

(3) هو فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين القرشي الطبري الرازي الشافعي، ولد بالري في العشر الأخيرة من شهر رمضان سنة أربع وأربعين وخمسمائة، كان إماما في العلوم العقلية والعلوم الشرعية، ومن مصنفاته: التفسير الكبير أو مفاتح الغيب، توفي بهرات، يوم الاثنين يوم عيد الفطر سنة ست وستمائة، ودفن في جبل قريب من هرات. أنظر: إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي أبو إسحاق: طبقات الفقهاء. تحقيق: خليل الميس، دار القلم، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج١، ص٢٦٣).

(4) سورة الحديد، الآية ٢٥.

(5) أنظر: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي: التفسير الكبير أو مفاتح الغيب. دار الكتب = العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١ هـ/٢٠٠٠م، (ج٢٩، ص٢٠٩).

وأورد ابن الجوزي[1] في معنى ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾[2] قولان:

أحدهما: أنه العدل. وعلى هذا القول يكون المعنى: وأمرنا بالعدل.

والثاني: أنه الذي يوزن به، أي الآلة. وعلى هذا يكون المعنى: أي أمرنا به ليقوم الناس بالقسط، أي لكي يقوموا بالعدل[3].

ب- كلمة (الوزن):

ورد هذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾[4]، «قال مجاهد[5]: معناه: والقضاء يومئذ العدل.

وقال الأكثرون: أراد به وزن الأعمال بالميزان»[6].

وذكر أبو السعود[7]: بأن الوزن عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل. وبه قال مجاهد والأعمش[1]، وهو ما اختاره كثير من المتأخرين بناءً على أن استعمال

---

(1) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله الجوزي القرشي التميمي البكري البغدادي ولد سنة ثمان، وقيل: عشر وخمسمائة، كان عالما مبرزا في عصره في الحديث والوعظ، من مصنفاته: زاد المسير في علم التفسير وغيره، توفي ليلة الجمعة ثاني عشر شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة ببغداد، ودفن بباب حرب. أنظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء الزمان. مرجع سابق، (ج٣، ص١٤٠- ١٤٢).

(2) سورة الحديد، الآية ٢٥.

(3) أنظر: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي: زاد المسير في علم التفسير. المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٤ هـ، (ج٨، ص١٧٤).

(4) سورة الأعراف، الآية ٨.

(5) هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي مولى عبد الله بن السائب القارئ، سمع ابن عباس وابن عمر وعليا، وروى عنه الحكم ومنصور وابن أبي نجيح وعطاء وطاوس، مات سنة ثلاث ومائة، وقيل: سنة ثنتين ومائة. أنظر: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبد الله البخاري الجعفي: التاريخ الكبير. تحقيق: السيد هاشم الندوي، دار الفكر، طبعة بدون ترقيم، (د - ت)، (ج٧، ص٤١١).

(6) الحسين بن مسعود البغوي: معالم التنزيل في التفسير. تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د - ت)، (ج٢، ص١٤٩).

(7) هو محمد بن محمد بن مصطفى العماد، أبو السعود، ولد في شهر صفر سنة ست وتسعين وثمانمائة، قرأ حاشية التجريد وشرح المفتاح وشرح المواقف على أبيه، ومن مصنفاته: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم في التفسير، وكانت وفاته في شهر جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة. أنظر: أحمد بن محمد الأدنروي: طبقات المفسرين. تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، السعودية، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، (ج١، ص٣٩٨، ٣٩٩).

لفظ الوزن في هذا المعنى شائع في اللغة والعرف بطريق الكناية[٢].

وورد لفظ الوزن أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾[٣].

وتأويل الآية: أي «وقوموا وزنكم بالعدل»[٤].

وقال أبو السعود: «قوموا وزنكم بالعدل. وقيل: أقيموا لسان الميزان بالقسط والعدل. وقيل: الإقامة باليد، والقسط بالقلب»[٥].

ج- كلمتي (الموازين)، (موازينه):

ورد لفظ **الموازين** في قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[٦].

وورد اللفظ **موازينه** في قوله تعالى: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[٧]، وفي قوله تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[٨]، وفي قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾[٩]، وتأويل هذا اللفظ عند علماء التفسير على النحو الآتي:

---

(١) هو سليمان بن مهران أبو محمد الأعمش الكاهلي مولاهم الأسدي الكوفي، ولد سنة ٦١ هـ، وكان مدلسا أخرج في هذه الطبقة؛ لأن له لقا وحفظا، ولم يصح له سماع المسند عن أنس، مات سنة ١٤٨ هـ، وهو ابن ثمان وثمانين سنة، وقيل: مات سنة ١٤٧هـ. انظر: أحمد بن محمد بن الحسين البخاري الكلاباذي أبو نصر: الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد. تحقيق: عبد الله الليثي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ، (ج١، ص٣١١)، ومحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي: الثقات. تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، ط١، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، (ج٤، ص٣٠٢).

(٢) أنظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم. مرجع سابق، (ج٣، ص٢١٣).

(٣) سورة الرحمن، الآية ٩.

(٤) النسفي: تفسير النسفي. مرجع سابق، (ج٤، ص٢٠٠).

(٥) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. مرجع سابق، (ج٨، ص١٧٧).

(٦) سورة الأنبياء، الآية ٤٧.

(٧) سورة الأعراف، الآية ٨، ٩.

(٨) سورة المؤمنون، الآية ١٠٢، ١٠٣.

(٩) سورة القارعة، الآية ٦، ٩.

- تأويل **الموازين**:

قال ابن كثير[١]في تأويل قوله تعالى:﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾[٢]،«... والأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه»[٣].

ويؤيد هذا المعنى حديث رسول الله ﷺ الوارد في الصحيحين: "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم"[٤].

وقال الشوكاني: «الموازين جمع ميزان. وهو يدل على أن هناك موازين، ويمكن أن يراد ميزان واحد عبر عنه بلفظ الجمع»[٥].

وقال النسفي[٦]: «الموازين جمع ميزان، وهو ما يوزن به الشيء فتعرف كميته.

وقيل: هو ميزان له كفتان ولسان. وإنما جمع الموازين بالقسط للمبالغة. كأنها في نفسها قسط أو على حذف المضاف. أي ذوات القسط»[٧].

- تأويل **موازينه**:

---

(١) هو إسماعيل بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن ذرع القرشي البصروي الدمشقي،ولد سنة إحدى وسبعمائة، صاهر الحافظ أبا الحجاج المزي، وأخذ عنه وعن ابن تيمية، ومن مصنفاته: التأريخ المسمى بالبداية والنهاية، والتفسير، توفي في شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية. أنظر: أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة: طبقات الشافعية. تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ، (ج٣، ص٨٥، ٨٦).

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٤٧.

(٣) إسماعيل بن كثير الدمشقي أبو الفداء: تفسير القرآن العظيم. دار الفكر، بيروت، طبعة بدون ترقيم، ١٤٠١هـ، (ج٣، ص١٨١).

(٤) أخرجه محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي: الجامع الصحيح المختصر. تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، (ج٥، ص٢٣٥٢، حديث رقم: ٦٠٤٣)، ومسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري: صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٤، ص٢٠٧٢، حديث رقم: ٢٦٩٤).

(٥) الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج٣، ص٤١٠).

(٦) عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، حافظ الدين أبو البركات، كان إماما في جميع العلوم، ومصنفات كثيرة في الفقه والأصول والتفسير، ومنها: المدارك في التفسير، توفي في سنة عشر وسبعمائة، في بلدة بغداد. أنظر: الأدنروي: طبقات المفسرين. مرجع سابق، (ج١، ص٢٦٣).

(٧) النسفي: تفسير النسفي. مرجع سابق، (ج٣، ص٨٢).

قال الزمخشري[1] في تأويل اللفظ ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ في آية الأعراف: بأنه جمع ميزان، أو موزون، أي فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر وهي الحسنات، أو ما توزن به حسناتهم[2].

وذكر البيضاوي[3] بأن المراد به حسناته أو ما يوزن به حسناته، فهو جمع موزون أو ميزان. وجمعه باعتبار اختلاف الموزونات وتعدد الوزن[4].

وورد في تأويل ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ في سورة القارعة الأقوال الآتية:

أنه ميزان واحد بيد جبريل يزن أعمال بني آدم، فعبر عنه بلفظ الجمع.

وقيل: موازين، كما قال: فلكل حادثة لها ميزان.

وقيل: هي الحجج والدلائل[5].

د- كلمة (وَزَنُوا):

ورد لفظ وَزَنُوا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾[6]، ومعنى **وزنوهم:** أي وزنوا لهم، فحذف حرف الجر فانتصب المفعول؛ لأن (وزن، وكال)

---

(1) هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي النحوي اللغوي المتكلم المفسر، يلقب جار الله؛ لأنه جاور بمكة زمانا، ولد في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة بزمخشر قرية من قرى خوارزم، من مصنفاته: الكشاف في التفسير، مات ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة. أنظر: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: طبقات المفسرين. تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٣٩٦هـ، (ج١، ص١٢٠، ١٢١).

(2) الزمخشري: الكشاف. بتصرف، مرجع سابق، (ج٢، ص٨٥).

(3) هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي أبو الخير القاضي ناصر الدين البيضاوي الشافعي، كان إماما مبرزا نظارا صالحا متعبدا زاهدا، ولي قضاء القضاة بشيراز، من مؤلفاته: مختصر الكشاف في التفسير المسمى بأنوار التنزيل وأسرار التأويل، وله شرح المصابيح في الحديث، كانت وفاته في بلدة تبريز سنة خمس وثمانين وستمائة. أنظر: الأدنروي: طبقات المفسرين. مرجع سابق، (ج١، ص٢٥٤، ٢٥٥).

(4) ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل. دار الفكر، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، بتصرف (ج٣، ص٦، ٧).

(5) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، القاهرة، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، بتصرف، (ج٢٠، ص١٦٦).

(6) سورة المطففين، الآية ٣.

يتعدى كل واحد منهما تارة بنفسه، وتارة بحرف الجر، يقال: كلتك وكلت لك، ووزنتك ووزنت لك بمعنى واحد. وحذف المفعول الثاني وهو المكيل والموزون، والواو التي هي ضمير الفاعل للمطففين، والهاء التي هي ضمير المفعول للناس. فالمعنى: إذا كالوا أو وزنوا لهم طعاما أو غيره مما يكال أو يوزن يخسرونهم حقوقهم. وقيل: إن **هم** في﴿كالو**هم أو** وزنو**هم** ﴾ تأكيد للضمير الفاعل[1].

وقال النسفي: «والضمير المنصوب فى﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ راجع إلى الناس، أي كالوا لهم أو وزنوا لهم. فحذف الجار وأوصل الفعل، وإنما لم يقل: أو اتزنوا كما قيل: ﴿أَو وَّزَنُوهُمْ ﴾اكتفاءً. ويحتمل أن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة؛ لأنهم يدعون ويحتالون فى الملء، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس فى النوعين»[2].

وقال ابن الجوزي في تأويل قوله:﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾، أي كالوا لهم ووزنوا لهم. ﴿يُخْسِرُونَ ﴾، أي ينقصون في الكيل والوزن، فعلى هذا لا يجوز أن يقف على كالوا. ومن الناس من يجعل(**هم**) توكيدا لكالوا، ويجوز أن يقف على كالوا. وعلى الأول قالت أعرابية: إذا صدر الناس أتينا التاجر فيكيلنا المد والمدين إلى الموسم المقبل[3].

هـ- كلمة (مَوْزُون):

وردت في قوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[4]، وقد أورد الطبري أقوالا للمفسرين في تأويلهم لهذا اللفظ، وكلها معان متقاربة، وإيجازها على النحو الآتي:

فقوله :﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ أي من كل شيء مقدر وبحد معلوم.

---

(1) أنظر: محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل. دار الكتاب العربي، لبنان، ط٤، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، (ج٤، ص١٨٤).

(2) النسفي: تفسير النسفي. مرجع سابق، (ج٤، ص٣٢٣).

(3) أنظر: ابن الجوزي: زاد المسير. مرجع سابق، (ج٩، ص٥٢، ٥٣).

(4) سورة الحجر، الآية ١٩.

وقيل: موزون: أي معلوم.

وقيل: أي بقدر.

وقيل: من كل شيء مقدور.

وقيل: مقدور بقدر.

وقيل: أي وأنبتنا في الجبال من كل شيء موزون، يعني من الذهب والفضة والنحاس والرصاص ونحو ذلك من الأشياء التي توزن[1].

وقال الشوكاني في تأويل الآية: أي أنبتنا في الأرض من كل شيء مقدرمعلوم، فعبر عن ذلك بالوزن؛ لأنه مقدار تعرف به الأشياء.

وقيل: معنى موزون مقسوم.

وقيل: معدود. والمقصود من الإنبات: الإنشاء والإيجاد.

وقيل: الضمير راجع إلى الجبال، أي أنبتنا في الجبال من كل شيء موزون من الذهب والفضة والنحاس والرصاص ونحو ذلك.

وقيل: موزون بميزان الحكمة، ومقدر بقدر الحاجة.

وقيل: الموزون هو المحكوم بحسنه، كما يقال: كلام موزون: أى حسن[2].

وقال النسفي في تفسيره: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي وزن بميزان الحكمة وقدر بمقدار تقتضيه لا تصلح فيه زيادة ولا نقصان.

أو له وزن وقدر في أبواب المنفعة والنعمة.

أو ما يوزن كالزعفران والذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها، وخص ما يوزن لانتهاء الكيل إلى الوزن[3].

وقال أبو السعود: «أي موزون بميزان الحكمة ذاتا وصفة ومقدارا... أو من كل شيء مستحسن مناسب...»[4].

وجميع الأقوال السابقة يتضمنها معنى اللفظ (موزون)، وحمل معناه على عموم

---

(1) أنظر: الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١٤، ص١٥ –١٧).

(2) أنظر: الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج٣، ص١٢٦).

(3) أنظر: النسفي: تفسير النسفي. مرجع سابق، (ج٢، ص٢٣٩).

(4) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. مرجع سابق، (ج٥، ص٧١).

الأشياء في الأرض أولى من تخصيصه بنوع معين منها، لاسيما والدلالة على العموم قد تضمنتها الآية، وهي قوله تعالى: ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾.

و- كلمة (زُنوا):

ورد في قوله تعالى:﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾[1]، وفي قوله تعالى:﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾[2].

قال الطبري في تأويل آية الشعراء: «وقضى أن زنوا أيضا إذا وزنتم لهم بالميزان المستقيم، وهو العدل الذي لا اعوجاج فيه ولا دغل ولا خديعة»[3].

وقال الشوكاني: «أي أعطوا الحق بالميزان السوي»[4].

وقال السعدي: «وهذا أمر بالعدل. وإيفاء المكاييل والموازين بالقسط من غير بخس ولا نقص. ويؤخذ من عموم المعنى النهي عن كل غش أو مثمن أو معقود عليه، والأمر بالنصح والصدق في المعاملة»[5].

فالآيتان تأمران بإتمام الوزن من غير اعوجاج فيه بما يؤدي إلى إنقاص حقوق الآخرين، والنظير لهما هو قوله تعالى:﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾[6]، وقوله تعالى:﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[7].

ويظهر مما سبق أن اللفظ لم يتعدى في دلالته على معنى ضبط الوزن بالآلة أو إعطاء الحق بالعدل، وكلاهما ظاهر فيه معنى التوازن.

ز- كلمة (وزناً):

ورد هذا اللفظ في قوله تعالى:﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾[8].

---

(1) سورة الإسراء، الآية ٣٥.

(2) سورة الشعراء، الآية ١٨٢.

(3) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١٥، ص٨٥).

(4) الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج٤، ص١١٥).

(5) السعدي: تيسير الكريم الرحمن. مرجع سابق، (ج١، ص٤٥٧).

(6) سورة الرحمن، الآية ٩.

(7) سورة هود، الآية ٨٥.

(8) سورة الكهف، الآية ١٠٥.

قال الطبري في تأويله لهذه الآية: أي «فلا نجعل لهم ثقلا، وإنما عنى بذلك أنهم لا تثقل بهم موازينهم؛ لأن الموازين إنما تثقل بالأعمال الصالحة، وليس لهؤلاء شيء من الأعمال الصالحة فتثقل به موازينهم»[1].

وقال البغوي[2] في تفسيره: «أي لا نجعل لهم خطرا وقدرا. تقول العرب: ما لفلان عندي وزن، أي قدر لخسته»[3].

ويؤيد هذا التأويل ما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة[4] -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- أنه قال: "ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ "[5].

وقال البيضاوي: أي «فنزدري بهم ولا نجعل لهم مقدارًا واعتبارًا، أو لا نضع لهم ميزاناً توزن به أعمالهم لانحباطها»[6].

وقال الشوكاني: «أى لا يكون لهم عندنا قدر ولا نعبأ بهم...

ويوصف الرجل بأنه لا وزن له: لخفته وسرعة طيشه وقلة تثبته.

والمعنى على هذا: أنهم لا يعتد بهم ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة»[7].

ومن خلال ما سبق عرضه يكون قد اتضح أنّ تصاريف مادة (وزن) لها

---

(1) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١٦، ص٣٥).

(2) هو الحسين بن مسعود بن محمد العلامة أبو محمد البغوي الفقيه الشافعي يعرف بابن الفراء، ويلقب محيي السنة وركن الدين، كان إماما في التفسير والحديث والفقه، ومن مصنفاته: معالم التنزيل في التفسير وغيره، مات في شوال سنة ست عشرة وخمسمائة، وقد جاوز الثمانين. أنظر: السيوطي: طبقات المفسرين. مرجع سابق، (ج١، ص٤٩، ٥٠).

(3) البغوي: معالم التنزيل. مرجع سابق، (ج٣، ص١٨٥).

(4) أبو هريرة الدوسي عبد الرحمن بن صخر، وقيل: كان عبد شمس فغير، قيل: روى عنه ثمانمائة، وكان حافظا، متثبتا، ذكيا، مفتيا، صاحب صيام وقيام، ولي إمرة المدينة مرات، توفي سنة ٥٧هـ، وقال جماعة: سنة ٥٩هـ. أنظر: حمد بن أحمد أبو عبد الله الذهبي الدمشقي: الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة. تحقيق: محمد عوامة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، مؤسسة علو، جدة، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، (ج٢، ص٤٦٩).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه. (ج٤، ص١٧٥٩، حديث رقم: ٤٤٥٢)، ومسلم في صحيحه. مرجعان سابقان، (ج٤، ص٢١٤٧، حديث رقم: ٢٧٨٥).

(6) البيضاوي: أنوار التنزيل. مرجع سابق، (ج٣، ص٥٢٦).

(7) الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج٣، ص٣١٦).

دلالات ومعانٍ متعددة أهمها:

١- أنها تعني الشرع، والعدل، والقضاء السوي، والحكم العادل، وكل ما يدل على تعديل واستقامة.

٢- أنها تدل على آلات الوزن والمقاييس المختلفة، والحجج والدلائل العقلية من الآيات الأفقية والنفسية والاعتبارات الشرعية والمناسبات والعلل والأحكام والحِكم.

٣- أنها تدل على المماثلة في الثقل أو القيمة أو العدد أو المساحة.

٤- أنها تدل على المعادلة والمساواة والمكافأة.

٥- أنها تدل على كل شئ وزن بميزان الحكمة وقدّر بقدر الحاجة وفق ما اقتضته حكمة الله تعالى.

٦- أنها تستعمل في كل ما هو محكوم بحسنه ومنظوم ومناسب.

٧- أنها تستعمل وصفاً لكل من له عقل ورأي وجيه وراجح، ولكل متثبت ومعتدل في عقله ورأيه.

٨- أنها تأتي بمعنى الأقوى والأمكن.

٩- أنها تدل على التوسط والانتصاف في الأشياء.

١٠- أنها تدل على الأفضلية والخيرية .

وقد تأتي لمعان أخرى قريبة من هذه المعاني.

ومن خلال العرض السابق لأقوال المفسرين في تفسيرهم للألفاظ المتصرفة من مادة (وزن) يتبين الاتفاق مع ما قاله علماء اللغة في بيانهم لمعاني هذه الألفاظ، وبهذا يستطيع الباحث أن يستخلص تعريفاً اصطلاحيا (للتوازن) وهو كالآتي:

التوازن في الاصطلاح:

هو تعادل الشيء وتكافئه وتكامله مع غيره مما يقابله أو يتضاد معه بالقسطاس المستقيم الذي تقتضيه الحاجة من دون زيادة أو نقصان.

ثالثا: القرآن الكريم في اللغة والاصطلاح:

١- معنى القرآن في اللغة:

القرآن: مصدر كالغفران والكفران، وهو مأخوذ من مادة (قرأ)، ومعنى القرآن معنى الجمع، وسمي قرآناً؛ لأنه يجمع السور فيضمها، وقوله تعالى:﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾[١]: أي جمعه وقراءته.

وتقول: قرأت الشئ قرآناً: جمعته وضممت بعضه إلى بعض، ومنه قولهم: ما قرأت هذه الناقة سلى قط، وما قرأت جنيناً قط: أي لم يضطم رحمها على ولد[٢].

و«قرأت القرآن والكتاب قراءةً وقرآنا: أتبعت بعضه بعضاً نظراً أو ظاهراً، و-أيضاً-: جمعته»[٣].

و«أما لفظ القرآن: فهو في اللغة مصدر مرادف للقراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۞فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[٤]، ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي-ﷺ- من باب إطلاق المصدر على مفعوله...، - و- لفظ قرآن مهموز. وإذا حذف همزه فإنما ذلك للتخفيف، وإذا دخلته(أل) بعد التسمية فإنما هي للمح الأصل لا للتعريف»[٥].

و« تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم»[٦].

٢-معنى القرآن في الاصطلاح:

---

(١) سورة القيامة، الآية ١٧.

(٢) أنظر: ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق، (ج١، ص١٢٨، ١٢٩).

(٣) أبو القاسم علي بن جعفر السعدي: الأفعال. عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، (ج٣، ص٥٢).

(٤) سورة القيامة، الآية ١٧، ١٨.

(٥) محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن. دار الفكر، لبنان، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، (ج١، ص١١).

(٦) أبو القاسم الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن. تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان، طبعة بدون ترقيم، (د - ت)، (ج١، ص٤٠٢).

لما كان القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، فقد اهتم علماء الأمة في صياغة تعريف مناسب له يكون جامعا مانعا لا يدخل فيه معه غيره، ومن أبرز ما ورد في تعريفه الآتي:

أ- «القرآن الكريم: هو المنزل على الرسول، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه نقلا متواترا بلا شبهة»[1].

ولما ظهر الخوض في صفات الله تعالى، ومنه الخوض في (كلامه على وجه الخصوص)، ومنه القرآن الكريم، وذلك من قبل الفرق والطوائف المبتدعة. احتاج أهل السنة إلى تعريف القرآن الكريم تعريفاً يُظهرون فيه معتقدهم في صفات الله تعالى عموماً، وفي صفة كلامه خصوصاً، فيخالفون بذلك المبتدعة من الجهمية[2]، والمعتزلة[3]، وغيرهم .

ب- وعرفه الطحاوي[4]فقال: «وإن القرآن: كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحيا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر»[5].

---

(1) علي بن محمد بن علي الجرجاني: التعريفات. تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، (ج١، ص٢٢٣).

(2) هم أصحاب جهم بن صفوان قالوا: لا قدرة للعبد أصلا لا مؤثرة ولا كاسبة، بل هو بمنزلة الجمادات، والجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما حتى لا يبقى موجود سوى الله تعالى. الجرجاني: المرجع نفسه، (ج١، ص١٠٨).

(3) هم أصحاب واصل بن عطاء الغزال، اعتزل عن مجلس الحسن البصري. الجرجاني: المرجع نفسه، (ج١، ص٢٨٢).

(4) هو أبو جعفر احمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الحجري المصري الطحاوي الحنفي، وطحا من قرى مصر، ولد سنة سبع وثلاثين ومائتين، انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة بمصر،صنف في اختلاف العلماء وفي الشروط وفي أحكام القرآن العظيم وغيرها، مات في مستهل ذي القعدة سنة إحدى وعشرين وثلاث مائة عن بضع وثمانين سنة. أنظر: أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي: تذكرة الحفاظ. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (د - ت)، (ج٣، ص٨٠٨ -٨١٠).

(5) أبو جعفر الطحاوي: متن العقيدة الطحاوية. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني،المكتب الإسلامي، بيروت، = = ط ١، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨ م، (ج١، ص٢٤).

ج- والذي يظهر بأن التعريف الجامع المانع الذي يميز القرآن الكريم عما عداه هو القائل: بأن القرآن هو كلام الله تعالى، المنزل على محمد -ﷺ-، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته[1].

فخرج بكلام الله تعالى: كلام الجن والإنس والملائكة وغيرهم من المخلوقات.

وخرج بالمنزل على محمد -ﷺ-: ما لم ينزل عليه أصلا مثل كلام البشر وغيرهم، و- أيضا- ما نزل على غيره من الأنبياء، كالتوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية السابقة.

وخرج بالمكتوب في المصاحف: كل ما لم يدخل فيها من غير ألفاظ القرآن الكريم، كالأحاديث النبوية، وأقوال الشعراء والحكماء، وغيرهم.

وخرج بالمنقول بالتواتر: ما لم يلغ درجة التواتر، كالقراءات غير المتواترة، ومنسوخ التلاوة، والأحاديث النبوة التي لم تبلغ حد التواتر.

وخرج بالمتعبد بتلاوته: الحديث القدسي المتواتر.

وبهذا يتضح بأن هذا التعريف هو الأنسب والأكمل في بيان اصطلاح القرآن الكريم؛ لأنه امتاز بإبراز أعظم خصائصه ومميزاته.

---

(1) أنظر: الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن. مرجع سابق، (ج١، ص١٥).

المبحث الثاني

الألفاظ والمصطلحات القرآنية الدالة على معنى التوازن لغويا:

في القرآن الكريم الكثير من الألفاظ الدالّة على التوازن، وسيورد الباحث أهمها بإيجاز لتوضيح دلالات التوازن الذي تضمنه كل لفظ منها، وذلك من خلال النظر فيما قاله علماء اللغة في بيانهم لمدلولات هذه الألفاظ، وذلك على النحو الآتي:

١- (قدر):

قال تعالى:﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [١].

فالقاف، والدال، والراء: أصل صحيح يدل على مبلغ الشئ وكنهه ونهايته.

وقدّر فلان: تمهل وفكر في تسوية أمر وتهيئته، وفي التنزيل:﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ ﴾[٢]، ومقدار الشيء: مثله في العدد أو الكيل أو الوزن أو المساحة، والقضاء، والحكم، وآلة يعين بها ساعات الليل والنهار، يقال لها الآن: الساعة[٣].

وكل هذه معان ظاهرة في التوازن.

٢- (مثل):

قال تعالى:﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾[٤].

«مثل: كلمة تسوية، يقال: هذا مِثْله ومَثَله، كما يقال: شبهه وشبهه، بمعنى»[٥].

ومثل قائما: أي انتصب. وامتثلتُ الأمر: احتذيته. وأخذ المِثال: القصاص.

والمِثال: القالب الذي يقدر على مثله، والمقدار، وصورة الشيء الذي تمثل صفاته[٦].

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٢.

(٢) سورة سبأ، الآية ١١.

(٣) أنظر: ابن فارس: معجم مقاييس اللغة. (ج٥، ص٦٢)، و إبراهيم مصطفى، وغيره: المعجم الوسيط. مرجعان سابق، (ج٢، ص٧١٨، ٧١٩).

(٤) سورة النحل، الآية ١٢٦.

(٥) ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق، (ج١١، ص٦١٠).

(٦) أنظر: الزمخشري: أساس البلاغة. (ج١، ص٥٨٢)، وإبراهيم مصطفى، وغيره: المعجم الوسيط. مرجعان سابقان، (ج٢، ص٨٥٤).

فالمماثلة بجميع مشتقاتها ومعانيها تدل على التوازن بصورة واضحة.

٣- (سواء):

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾[١].

يقال: ساوى الشيء الشيء: إذا عادله. ويقال: فلان وفلان سواء، أي متساويان[٢].

«وسواء الشيء: وسطه، قال الله تعالى: ﴿ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [٣]»[٤].

وبدلالة اللفظ على معادلة الأشياء ومساواتها ببعضها، وكذا دلالته على التوسط والانتصاف، يتضح معنى التوازن فيه.

٤- (حسب):

قال تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾[٥].

يقال: هذا بحسَب ذا: أي بعدده وقدره، وقد يُسكن.

وحسب المال ونحوه حِسابا وحُسبانا: عده، وأحصاه، وقدره، فهو حاسب[٦].

«وإنه لحسن الحِسبة في الأمر: أي حسن التدبير والنظر»[٧].

فالعد، والتقدير، والإحصاء، وحسن التدبير للأمور: يعني العلم بعداد الأشياء ومواضعها من الصواب والذي يقتضي مجانبة الخطأ، وهذا توازن واضح.

٥- (الإحصاء):

قال تعالى: ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴾[٨].

---

(١) سورة الأعلى، الآية ٢.

(٢) أنظر: ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق، (ج١٤، ص٤١٠).

(٣) سورة الصافات، الآية ٥٥.

(٤) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح. تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، طبعة جديدة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، (ج١، ص١٣٦).

(٥) سورة الرحمن، الآية ٥.

(٦) أنظر: محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: القاموس المحيط. مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د - ت)، (ج١، ص٩٤)، وإبراهيم مصطفى، وغيره: المعجم الوسيط. مرجع سابق، (ج١، ص١٧١).

(٧) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي: المحكم والمحيط الأعظم. تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م، (ج٣، ص٢٠٨).

(٨) سورة الجن، الآية ٢٨.

«الإحصاء: العد والحفظ. وأحصى الشيء: أحاط به»[1].

«وهذا أمر لا أحصيه: لا أطيقه ولا أضبطه...

وفلان ذو حصاة: وقور، وما له حصاة ولا أصاة: أي رزانة»[2].

ومما لا شك فيه أن الإحاطة بالشئ، وعده، وضبطه، وكذا الرزانة، والوقار، والتَّعقل معانٍ ظاهرة في التوازن .

٦- (العدل):

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[3].

العدل: ما قام في النفوس أنه مستقيم، وهو ضد الجور.

وقيل: العدل: تقويمك الشيء بالشيء من غير جنسه حتى تجعله له مثلا.

وقال قوم: العَدْل الوزن. وعَدَلْتُ الشيء بالشيء عَدْلاً: إذا جعلته بوزنه[4].

«والاعتدال: توسط حال بين حالين في كم أو كيف...

وكل ما تناسب: فقد اعتدل، وكل ما أقمته: فقد عدلته»[5].

وبما يحمل لفظ العدل من الدلالات على الموازنة والاعتدال والتوسط والتناسب وغير ذلك من المعاني المتقاربة، يتبين أنه أحد المعاني للتوازن.

٧- (القِسط):

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾[6].

والقِسْطُ – بكسر القاف –: العدل، والفعل منه أقسط بالألف.

والقِسْط: النصيب. والإقساط: العدل في القسمة والحكم.

وتقسطوا بينهم الشيء: أي اقتسموه بالتسوية، فكل مقدار قسط في كل شيء[7].

---

(١) ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق، (ج١٤، ص١٨٤).

(٢) أساس البلاغة. مرجع سابق، (ج١، ص١٣٠).

(٣) سورة المائدة، الآية ٨.

(٤) أنظر: ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق،(ج١١، ص٤٣٠- ٤٣٢)، وأبو بكر محمد بن الحسن بن دريد: جمهرة اللغة. تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م، (ج٢، ص٦٦٣).

(٥) ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق، (ج١١، ص٤٣٣).

(٦) سورة النساء، الآية ١٣٥.

(٧) أنظر: الأزهري: تهذيب اللغة. (ج٨، ص٢٩٨)، والخليل بن أحمد الفراهيدي: العين. مرجعان سابقان، =

وبدلالة لفظ القسط على العدل والتسوية يتضح مدلول التوازن فيه.

٨- (القِسطاس):

قال تعالى: ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾[١].

«القسطاس – بضم القاف وكسرها –: الميزان»[٢].

«وتقول: فلان يقيس الأمر بمقياسه، ويزنه بقسطاسه وبقسطاسه»[٣].

ويتضح معنى التوازن في هذا اللفظ بكونه مسمىً صريحا للميزان.

٩- (القصد):

قال تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾[٤].

فالقصد: استقامة الطريق. والقصد: العدل.

والقصد في الشيء: خلاف الإفراط، وهو ما بين الإسراف والتقتير.

وقصد في الأمر: إذا لم يجاوز فيه الحد ورضي بالتوسط؛ لأنه في ذلك يقصد الأسد.

وهو على القصد، وعلى قصد السبيل: إذا كان راشدا.

وسهم قاصد، وسهام قواصد: مستوية نحو الرمية[٥].

وبدلالات القصد على الاستقامة والتوسط والاستواء يسفر معنى التوازن فيه.

١٠- (الوسط):

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[٦].

«الواو، والسين، والطاء: بناء صحيح يدل على العدل، والنصف»[٧].

و«الوسط – مخففا –: يكون موضعا للشيء، تقول: زيد وسْط الدار، فإذا نصبت

= (ج٥، ص٧١).

(١) سورة الشعراء، الآية ١٨٢.

(٢) الرازي: مختار الصحاح. مرجع سابق، (ج١، ص٢٢٣).

(٣) الزمخشري: أساس البلاغة. مرجع سابق، (ج١، ص٥٠٧).

(٤) سورة لقمان، الآية ١٩.

(٥) أنظر: ابن منظور: لسان العرب. (ج٣، ص٣٥٣، ٣٥٤)، والزمخشري: أساس البلاغة. مرجعان سابقان، (ج١، ص٥٠٩).

(٦) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

(٧) ابن فارس: مقاييس اللغة. مرجع سابق، (ج٦، ص١٠٨).

السين صار اسما لما بين طرفي كل شيء»[1].

«والوسط من كل شيء: أعدله»[2].

وبدلالة الوسط على العدل والنصف الذي يستلزم عدم الجنوح إلى جهة دون أخرى يظهر التوازن واضحا فيه.

١١- (البينية):

قال تعالى:﴿ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾[3].

«بين: من الظروف اللازمة للإضافة، ولا يضاف إلا إلى اثنين فصاعدا، أو ما قام مقامه...»[4]، «وبين: بمعنى وسط. تقول: جلس بين القوم، كما تقول: جلس وسْط القوم بالتخفيف...، وهذا الشيء بين بين: أي بين الجيد والرديء»[5].

وليس المقصود هنا مجرد البينية الظرفية، بل المقصود الدلالة على التوازن حساً ومعنى، وذلك من خلال ما يحمل هذا اللفظ من دلالة على التوسط.

١٢- (قَوَام، قِيَم، قيّم):

قال تعالى: ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾[7]، وقال تعالى:﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾[8].

«القوام – بالفتح –: العدل...، وقوام الرجل – أيضا–: قامته وحسن طوله»[9].

وقال الزجاج: قِيَما: مصدر كالصغر والكبر، وكذلك دين قويم وقوام، ويقال: رمح قويم، وقوام: أي مستقيم.

---

(١) الخليل بن أحمد: العين. مرجع سابق، (ج٧، ص٢٧٩).

(٢) الرازي: مختار الصحاح. مرجع سابق، (ج١، ص٣٠٠).

(٣) سورة البقرة، الآية ٦٨.

(٤) أبو الفتح ناصر بن عبد السيد بن علي بن المطرز: المغرب في ترتيب المعرب. تحقيق: محمود فاخوري، وعبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد، حلب، ط١، ١٩٧٩م، (ج١، ص٩٨).

(٥) الرازي: مختار الصحاح. مرجع سابق، (ج١، ص٢٩).

(٦) سورة الفرقان، الآية ٦٧.

(٧) سورة الأنعام، الآية ١٦١.

(٨) سورة البينة، الآية ٥.

(٩) الرازي: مختار الصحاح. مرجع سابق، (ج١، ص٢٣٢).

والملة القيمة: المعتدلة. والأمة القيمة: كذلك[1].

وبالدلالة على العدل، والاعتدال، والاستقامة، ونحوها يتضح معنى التوازن هنا.

١٣- (الاستقامة):

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2].

قام الشيء واستقام: اعتدل واستوى.

وقام ميزان النهار: انتصف. واستقام الشعر: اتزن.[3].

وبالتالي فدلالة الاستقامة على استواء الأشياء واتزانها وبعدها عن العوج والميل يُظهر التوازن بجلاء كامل فيها.

١٤- (الحنيف):

قال تعالَى: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾[4].

الحاء، والنون، والفاء: أصل مستقيم، وهو الميل.

ورجل أحنف: أي مائل الرجلين، وذلك يكون بأن تتدانى صدور قدميه ويتباعد عقباه[5].

«والدين الحنيف: المستقيم الذي لا عوج فيه، وهو الإسلام»[6].

وبدلالة الحنف على الاستقامة يظهر التوازن في هذا اللفظ. وأما دلالة التوازن في ميل الرجليين، فذلك في كون صدر كل قدم تقابل صدر القدم الأخرى.

١٥- (الحكمة):

قال تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[7].

و«الحكمة: مرجعها إلى العدل، والعلم، والحلم.

ويقال: أحكمته التجارب إذا كان حكيما. وأحكم فلان عني كذا: أي منعه»[8].

---

(١) أنظر: ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق، (ج١٢، ص٥٠٣).

(٢) سورة الأحقاف، الآية ١٣.

(٣) أنظر: المرجع السابق، (ج١٢، ص٤٩٩).

(٤) سورة البقرة، الآية ١٣٥.

(٥) أنظر: ابن فارس: مقاييس اللغة. مرجع سابق، (ج٢، ص١١٠).

(٦) إبراهيم مصطفى، وغيره: المعجم الوسيط. مرجع سابق، (ج١، ص٢٠٣).

(٧) سورة البقرة، الآية ٢٦٩.

(٨) الخليل: العين. مرجع سابق، (ج٣، ص ٦٦).

ومن هذا قيل للحاكم بين الناس حاكم؛ لأنه يمنع الظالم من الظلم، ومنه سميت حكمة اللجام؛ لأنها ترد الدابة. ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم[1].

وبدلالة الحكمة على المنع من مجاوزة الحد، ووضع الشيء في موضعه، وكذا ما تحمله من معنى الإتقان والإحسان في الصناعات الذي يمنع تطرق أي خلل إلى المصنوع يتبين معنى التوازن في هذا اللفظ بجلاء كامل.

١٦- (الحِلْم):

قال تعالى: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ﴾[2].

الحلم: ضد الطيش، ويقصد به: الأناة وضبط النفس والعقل. يقال: حلم حلما: تأنى وسكن عند غضب أو مكروه مع قدرة وقوة وصفح وعقل[3].

فالتأني، والسكون، وضبط النفس، وعدم العجلة في الأمور مع وجود القدرة على فعل ذلك توازن ظاهر في لفظ الحلم.

١٧- (السَّداد):

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[4].

«السداد – بالفتح – معناه: الإصابة في المنطق أن يكون الرجل مسددا.

ويقال: إنه لذو سداد في منطقه وتدبيره، وكذلك في الرمي، يقال: سد السهم يسد: إذا استقام...، واستد الشيء: إذا استقام»[5].

وبمعاني الإصابة والاستقامة ونحوهما، يتضح معنى التوازن في هذا اللفظ.

١٨- (الصواب):

قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾[6].

---

(١) أنظر: لسان العرب. (ج١٢، ص١٤٠، ١٤١).

(٢) سورة الطور، الآية ٣٢.

(٣) أنظر: ابن دريد: جمهرة اللغة. (ج١،ص٥٦٥)، وإبراهيم مصطفى، وغيره: المعجم الوسيط. مرجعان سابقان، (ج١، ص١٩٤، ١٩٥).

(٤) سورة الأحزاب، الآية ٧٠.

(٥) ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق، (ج٣، ص٢٠٧، ٢٠٨).

(٦) سورة النبأ، الآية ٣٨.

«يقال: أصاب فلان في قوله وفعله، وأصاب السهم القرطاس: إذا لم يخطئ»[١].

«وفلان مستقيم الصوب: إذا لم يزغ عن قصده يمينا وشمالا في مسيره»[٢].

فدلالة الصواب على الاستقامة من دون أي انحراف عنها، وإصابة الأشياء من غير خطأ توازن بيّن في هذا اللفظ.

١٩- (الحبك):

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾[٣].

«الحاء، والباء، والكاف: أصل منقاس مطرد، وهو إحكام الشيء في امتداد واطراد»[٤]، «وكلُّ شيءٍ أَحْكَمْتَه وأَحسَنْت عمَلَه: فقد احتَبَكْتَه»[٥].

ويظهر التوازن هنا بالدلالة على إحكام الأشياء وإجادتها، وحسن التدبير لها.

٢٠- (الإتقان):

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾[٦].

«يقال: أتقنَ فلانٌ أمره: إذا أحكَمه»[٧].

وبالدلالة على إحكام الأشياء وإتقان صنعها يظهر معنى التوازن في اللفظ.

٢١- (الإحسان):

قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[٨].

«الإِحْسانُ: ضِدُّ الإِساءَةِ...، وقوْلُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾[٩]: أَي باسْتِقامَةٍ وسُلوكِ الطَّرِيقِ الذي دَرَجَ السابقُونَ عليه»[١٠].

---

(١) المرجع السابق. ج١، ص٥٣٥.

(٢) الخليل بن أحمد: العين. مرجع سابق، (ج٧، ص١٦٧).

(٣) سورة الذاريات، الآية ٧.

(٤) ابن فارس: مقاييس اللغة. مرجع سابق، (ج٢، ص١٣٠).

(٥) الزبيدي: تاج العروس. مرجع سابق، (ج٢٧، ص١٠١).

(٦) سورة النمل، الآية ٨٨.

(٧) الأزهري: تهذيب اللغة. مرجع سابق، (ج٩، ص٦٦).

(٨) سورة غافر، الآية ٦٤.

(٩) سورة التوبة، الآية ١٠٠.

(١٠) الزبيدي: تاج العروس. مرجع سابق، (ج٣٤، ص٤٢١، ٤٢٢).

«وأحسن الشيء: أجاد صنعه...، وأتقنه»[1].

وبملازمة طريق الاستقامة من غير خروج عنها، وكذا إتقان الأشياء، وإجادة صنعها بما لا يؤدي إلى حدوث فساد أو إساءة أو خلل، يتضح التوازن.

٢٢- (مرصوص):

قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[2].

«رص البنيان يرصه رصا، فهو مرصوص، ورصيص، ورصصه، ورصرصه: أحكمه وجمعه وضم بعضه إلى بعض، وكل ما أحكم وضم: فقد رص.

ورصصت الشيء أرصه رصا: أي ألصقت بعضه ببعض...

وتراص القوم: تضاموا وتلاصقوا. وتراصوا: تصافوا في القتال والصلاة»[3].

فإحكام الأشياء وتراصها بانتظام توازن واضح.

٢٣- (الصف):

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾[4].

«الصَّفُّ: السَّطْرُ المُسْتَوِي من كل شيءٍ، وجمعُه صُفُوفٌ.

وصَفَّ القَوْمُ يَصُفُّونَ صَفّا، واصْطَفُّوا، وتصَافُّوا عليه: اجْتَمَعُوا صَفّا...

والصَّفُّ: مَوْقِف الصّفوفِ...، وأرضٌ صَفْصَفٌ: مَلْساء مُستَوية»[5].

وبما يتضمنه لفظ الصف من دلالة على الاستواء يتبين معنى التوازن فيه.

٢٤- (القرار، الاستقرار):

قال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾[6].

«القرار: المستقر من الأرض، ويوم القر- بالفتح -: اليوم الذي بعد يوم النحر؛ لأن الناس يقرون في منازلهم...، والقرار في المكان: الاستقرار»[7].

---

(1) إبراهيم مصطفى وغيره: المعجم الوسيط. مرجع سابق، (ج١، ص١٧٤).

(2) سورة الصف، الآية ٤.

(3) ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق، (ج٧، ص٤٠).

(4) سورة الصف، الآية ٤.

(5) ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم. مرجع سابق، (ج٨، ص٢٧٢، ٢٧٣).

(6) سورة النمل، الآية ٦١.

(7) الرازي: مختار الصحاح. مرجع سابق، (ج١، ص٢٢١).

«﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ﴾[1]: أي لمكان لا تجاوزه وقتا ومحلا. وقيل: لأجل قدر لها»[2].

وبما يحمله هذا اللفظ من دلالات على السكون، والثبوت، وعدم التجاوز للموضع المقدر له يتضح مدلول التوازن فيه.

٢٥- (الطمأنينة):

قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾[3].

«اطْمأَنَّ إلى كذا اطْمِئْناناً وطُمَأْنِينَةً – بالضمّ –: سَكَنَ إليه ووَثَقَ به... وفيه تَطَامُنٌ: أَي سكونٌ ووقارٌ»[4]، «ووتد الله الأرض بالجبال فاطمأنت»[5].

فالسكون، والوقار، والاستقرار معانٍ دالة على التوازن.

٢٦- (القصاص):

قال تعالى:﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[6].

«قاصصته مقاصة وقصاصا: من باب قاتل إذا كان لك عليه دين مثل ماله عليك، فجعلت الدين في مقابلة الدين مأخوذ من اقتصاص الأثر، ثم غلب استعمال القصاص في قتل القاتل، وجرح الجارح، وقطع القاطع»[7].

«والتقاص: التناصف في القصاص»[8].

فدلالة هذا اللفظ على التوازن هو بما يحمل من معاني المساواة، والمماثلة، والعدل في أخذ الحقوق وإيقاع العقوبات من دون زيادة أو نقصان.

٢٧- (الهُدى):

---

(1) سورة يس، الآية ٣٨.

(2) ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق، (ج٥، ص٨٤، ٨٥).

(3) سورة الرعد، الآية ٢٨.

(4) الزبيدي: تاج العروس. مرجع سابق، (ج٣٥، ص٣٥٦، ٣٥٧).

(5) الزمخشري: أساس البلاغة. مرجع سابق، (ج١، ص٣٩٦).

(6) سورة البقرة، الآية ١٧٩.

(7) أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي. المكتبة العلمية، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٢، ص٥٠٥).

(8) ابن منظور: لسان العرب. (ج٧، ص٧٦).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1].

«الهُدَى: ضد الضَّلال»[2].

«وفلان يهدي هدي فلان: يفعل مثل فعله ويسير سيرته. وما أحسن هديه: أي سمته وسكونه»[3].

وبدلالة الهدى على نقيض الضلال، وعلى السمت والسكون، وعلى المماثلة في الفعل والطريقة من دون الخروج عن ذلك يتضح معنى التوازن في اللفظ.

٢٨- (رشد):

قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[4].

«الراء، والشين، والدال: أصل واحد يدل على استقامة الطريق...

والرشَد والرُشد: خلاف الغي»[5].

«والرَّشيد – أيضا–: هو الذي حَسُنَ تَقْديرُهُ فيما قَدَّرَ، أَو الذي تَنْسَاقُ تَدبيراتُه إِلى غَاياتِها على سَبيلِ السَّدادِ من غير إِشارةِ مُشيرٍ ولا تَسْدِيدِ مُسدِّد»[6].

فالاستقامة، وحسن التقدير للأمور مع إصابة السداد يمثل توازنا بينا.

٢٩- (صلح):

قال تعالى:﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾[7].

الصاد، واللام، والحاء: أصل واحد يدل على خلاف الفساد.

يقال: صلح صلاحا وصلوحا: زال عنه الفساد. والشيء: كان نافعا أو مناسبا.

والصلاح: الاستقامة، والسلامة من العيب. والصالح: المستقيم المؤدي لواجباته[8].

---

(١) سورة طه، الآية ٥٠.

(٢) ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم. مرجع سابق، (ج٤، ص٣٧٠، ٣٧١).

(٣) ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق، (ج١٥، ص٣٥٦).

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

(٥) ابن فارس: مقاييس اللغة. مرجع سابق، (ج٢، ص٣٩٨).

(٦) الزبيدي: تاج العروس. مرجع سابق، (ج٨، ص٩٦).

(٧) سورة الأعراف، الآية ٥٦.

(٨) أنظر: ابن فارس: مقاييس اللغة. (ج٣، ص٣٠٣)، وإبراهيم مصطفى، وغيره: المعجم الوسيط. مرجعان سابقان، (ج١، ص٥٢٠).

وبما يحمله لفظ الصلاح من بُعد عن الفساد وسلامته من العيب، ودلالته على الاستقامة والتناسب يتضح معنى التوازن فيه.

٣٠- (الحق):

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[١].

«الحق: نقيض الباطل، وجمعه: حقوق وحقاق...

وحقه يحقه حقا وأحقه – كلاهما–: أثبته وصار عنده حقا لا يشك فيه...

ويقال: أحققت الأمر إحقاقا: إذا أحكمته وصححته»[٢].

«وقال الراغِبُ[٣]: أصلُ الحَقِّ المُطابقةُ والمُوافَقَة، كمُطابَقَةِ رِجلِ الباب في حُقهِ لدَوَرانِه على الاستِقامَةِ»[٤].

ومن خلال ما يحمله لفظ الحق من معنى الإحكام والمطابقة، والموافقة التامة لما يعنيه من الاستقامة، يتبين أنه أحد أبرز مصطلحات التوازن وألفاظه.

٣١- (ثبت):

قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾[٥].

«ثبت الشيء يثبت ثبوتا: دام واستقر،... وثبت الأمر: صح.

ويتعدى بالهمزة والتضعيف، فيقال: أثبته وثبته، والاسم: الثبات»[٦].

«وتثبت في الأمر، واستثبت فيه: إذا تأنى»[٧].

فالاستقرار والتأني في الأمور توازن واضح في هذا اللفظ.

٣٢- (الرسو):

---

(١) سورة البقرة، الآية ٤٢.

(٢) ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق، (ج١٠، ص٤٩).

(٣) هو مفضل بن محمد الأصبهاني، أبو القاسم الراغب، كان عالما بأنواع العلوم، وماهراً في التفسير، ومن مصنفاته: مفردات القرآن، وأقانين البلاغة وغيرهما، توفي سنة خمس وثلاثين وخمسمائة. أنظر: الأدنروي: طبقات المفسرين. مرجع سابق، (ج١، ص١٦٨، ١٦٩).

(٤) الزبيدي: تاج العروس. مرجع سابق، (ج٢٥، ص١٦٦).

(٥) سورة إبراهيم، الآية ٢٧.

(٦) الفيومي: المصباح المنير. مرجع سابق، (ج١، ص٨٠).

(٧) الزمخشري: أساس البلاغة. مرجع سابق، (ج١، ص٦٩).

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾[1].

«رسى: الراء، والسين، والحرف المعتل: أصل يدل على ثبات.

تقول: رسا الشيء يرسو: إذا ثبت، والله جل ثناؤه أرسى الجبال: أي أثبتها.

وجبل راس: ثابت»[2].

وبدلالة اللفظ على ثبات الشيء من دون اضطراب أو انحراف يتضح التوازن.

ويلحق بهذه المصطلحات ألفاظ نهى القرآن عنها، ونفاها الله تعالى عن نفسه وعن خلقه الذي أبدعه وأتقنه؛ لاحتوائها على معان تناقض التوازن وتخل به، وفي هذا النفي والنهي يتحقق معنى التوازن المطلوب، وهذه أمثلة ذلك باختصار:

٣٣- (النهي عن الإسراف):

قال تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[3].

«النَّهْيُ: خلاف الأمر، نَهاه يَنْهاه نَهْياً فانْتَهى»[4].

و«الإسراف: مجاوزة القصد. وأسرف في ماله: عجل من غير قصد»[5].

فالنهي عن الإسراف يعني الاقتصاد والتوسط في الأمور، وهذا توازن ظاهر.

٣٤- (النهي عن التبذير):

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾[6].

يقال:«بَذَّرَ مالَه: أَفْسَدَه وأَنْفَقَه في السَّرَفِ، وكُلُّ ما فَرَّقْتَه وأَفْسَدْتَه: فقَدْ بَذَّرْتَه»[7].

فالنهي عن التبذير يقتضي الاقتصاد والاعتدال، وهذا توازن واضح.

٣٥- (النهي عن الإفراط):

قال تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾[8].

---

(1) سورة الأنبياء، الآية ٣١.

(2) ابن فارس: مقاييس اللغة. مرجع سابق، (ج٢، ص٣٩٤).

(3) سورة الأعراف، الآية ٣١.

(4) ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم. مرجع سابق، (ج٤، ص٣٨٤).

(5) ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق، (ج٩، ص١٤٨).

(6) سورة الإسراء، الآية ٢٦.

(7) ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم. مرجع سابق، (ج١٠، ص٦٧).

(8) سورة طه، الآية ٤٥.

«والإفراط: إعجال الشيء في الأمر قبل التثبت.

وأفرط في أمره: أي عجل فيه وجاوز القدر»[1].

فالنهي عن العجلة ومجاوزة القدر، يتضمن التثبت والوقوف عند مستوى القدر المطلوب من دون زيادة في ذلك، وهذا توازن بين.

٣٦- (النهي عن التفريط):

قال تعالَى: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[2].

«والتَّفْريطُ في الأَمرِ: التَّقْصيرُ فيه وتَضْييعُه حتَّى يَفوتَ...

فَرَّطَ في جَنْبِ الله: ضيَّعَ ما عِنْدَه فلم يَعْمَلْ»[3].

فالنهي عن التقصير والتضييع للأمر يستلزم الإتيان به كاملا على الوجه المطلوب، وهذا توازن واضح.

٣٧- (النهي عن الغلو):

قال تعالى: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾[4].

غلا في الدين غلوا: تصلب وشدد حتى جاوز الحد.

وغالى في أمره مغالاة: بالغ، ويقال للشيء إذا زاد وارتفع: قد غلا[5].

وبالتالي فإن النهي عن المبالغة والتشدد، ومجاوزة الحد في الأمور، ووصفها على غير حقيقتها يستلزم نقيضها، وهذا توازن بين.

٣٨- (النهي عن الطغيان):

قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾[6].

«الطّغْيانُ: الاعْتداءُ في حُدُودِ الأَشْياءِ ومَقادِيرِها...، وطَغَى الماءُ: ارْتَفَعَ وعَلاَ حتى جاوَزَ الحَدَّ في الكثْرَةِ»[7].

---

(1) الخليل بن أحمد: العين. مرجع سابق، (ج٧، ص٤١٩).

(2) سورة الزمر، الآية ٥٦.

(3) الزبيدي: تاج العروس. مرجع سابق، (ج١٩، ص٥٣٣).

(4) سورة المائدة، الآية ٧٧.

(5) أنظر: المصباح المنير. مرجع سابق، (ج٢، ص٤٥٢).

(6) سورة هود، الآية ١١٢.

(7) الزبيدي: تاج العروس. مرجع سابق، (ج٣٨، ص٤٩٢).

فالنهي عن مجاوزة حدود الأشياء ومقاديرها توازن واضح في اللفظ.

٣٩- (النهي عن الزيغ):

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾[١].

«الزَّيغُ: الميلُ. والتَّزايُغ: التمايلُ»[٢].

فالنهي عن الزيغ يستلزم الاستقامة وعدم الخروج عنها، وهذا توازن جلي.

٤٠- (النهي عن الميل):

قال تعالى: ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴾[٣].

«الميم، والياء، واللام: كلمة صحيحة تدل على انحراف في الشيء إلى جانب منه...، والأميل من الرجال: الذي لا يثبت على الفرس؛ لأنه يميل عن سرجه»[٤].

والنهي عن الميل يستلزم: الاعتدال، والثبات، وهذه معان واضحة في التوازن.

٤١- (النهي عن الظلم):

قال تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴾[٥].

«الظلم: وضع الشيء في غير موضعه...

وأصل الظلم: الجور ومجاوزة الحد...، والظلم: الميل عن القصد»[٦].

وهكذا يظهر أن النهي عن الظلم يستلزم العدل، ويستلزم وضع الأشياء في مواضعها من دون تجاوز لحدودها، وهذا توازن بيّن.

٤٢- (النهي عن الفسق):

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ ﴾[٧].

«والفِسْق أصله من قولهم: انفسقتِ الرُّطَبَة: إذا خرجت من قشرها، ومنه

---

(١) سورة الصف، الآية ٥.

(٢) الأزهري: تهذيب اللغة. مرجع سابق، (ج٨، ص١٥١).

(٣) سورة النساء، الآية ٢٧.

(٤) ابن فارس: مقاييس اللغة. مرجع سابق، (ج٥، ص٢٩٠).

(٥) سورة الكهف، الآية ٥٩.

(٦) ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق، (ج١٢، ص٣٧٣).

(٧) سورة السجدة، الآية ٢٠.

اشتقاق الفاسق؛ لانفساقه من الخير، أي انسلاخه منه»[1].

ويتضح التوازن هنا بعدم الخروج أو الميل عن حدود الموضع المقدر للشيء.

٤٣- (النهي عن الإخسار):

قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾[2].

«الخسر: النقصان. والخسران: كذلك...، والخاسر: الذي وضع في تجارته. ومصدره الخسارة والخسر، يقال: كلته ووزنته فأخسرته، أي نقصته»[3].

فالنهي عن الإخسار يستلزم إعطاء الحق كاملا في كافة الأمور من غير أي انتقاص منها، وهذا توازن بيّن.

٤٤- (النهي عن النقص):

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾[4].

«نقصه حقه نقصا وانتقصه...، وانتقص واستنقص الثمن: استحطه»[5].

فالنهي عن انتقاص حقوق الآخرين، يقتضي الوفاء بها ووضعها في أيدي مستحقيها، وهذا توازن واضح.

٤٥- (النهي عن الشطط):

قال تعالى: ﴿ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾[6].

«شطت الدار تشط- بضم الشين وكسرها- شطا وشطوطا: بعدت، وأشط في القضية: أي جار...، والشطط – بفتحتين -: مجاوزة القدر في كل شيء»[7].

ويكمن معنى التوازن في النهي عن الجور المستلزم للعدل، ويكمن-أيضا- في النهي عن البعد ومجاوزة القدر المستلزم للإقامة على موضع الحق.

---

(1) ابن دريد: جمهرة اللغة. مرجع سابق، (ج٢، ص٨٤٧).

(2) سورة الرحمن، الآية ٩.

(3) الخليل: العين. مرجع سابق، (ج٤، ص١٩٥).

(4) سورة هود، الآية ٨٤.

(5) الزمخشري: أساس البلاغة. مرجع سابق، (ج١، ص٦٥١).

(6) سورة ص، الآية ٢٢.

(7) الرازي: مختار الصحاح. مرجع سابق، (ج١، ص١٤٢).

٤٦- (النهي عن الزلل):

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا ﴾[١].

«زل الشيء عن الشيء: إذا دحض عنه...

وزل الرجل زلة قبيحة: إذا وقع في أمر مكروه أو أخطأ خطأ فاحشا»[٢].

ويستلزم النهي عن الزلل: الثبات على الحق، وهذا توازن بيّن.

٤٧- (النهي عن الجنف):

قال تعالى: ﴿ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ ﴾[٣].

«الجَنَفُ: الميل في الكلام وفي الأُمور كلِّها، تقول: جَنَفَ فلان علينا وأَجْنَفَ في حُكمه...، ورجلٌ أَجْنَف: في أَحَدِ شَقَّيْه مَيَلٌ على الآخر»[٤].

وبالنهي عن الميل تتحقق الاستقامة ويظهر معنى التوازن.

٤٨- (النهي عن الفساد ونفيه):

«نَفَيْت الرَّجُلَ وغيره نَفْياً: إذا طَرَدْته...

ويُقال: نفيت الشيء أَنْفِيه نَفْياً ونُفَاية: إذا رَدَدْته»[٥].

قال تعالى: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾[٦].

«والفَساد: ضدّ الصلاح، وفسد الرجل: جاوز الصواب والحكمة.

وفسدت الأمور: اضطربت وأدركها الخلل»[٧].

والنهي عن الفساد: يعني الأمر بالصلاح وعدم مجاوزة الصواب والحكمة.

ونفي الفساد يعني: نفي الاضطراب والخلل، وبالمقابل وجود الإحكام والإتقان والاستقرار، وهذا توازن واضح في هذا المصطلح.

---

(١) سورة النحل، الآية ٩٤.

(٢) ابن دريد: جمهرة اللغة. مرجع سابق، (ج١، ص١٣٠).

(٣) سورة المائدة، المائدة ٣.

(٤) الأزهري: تهذيب اللغة. مرجع سابق، (ج١١، ص٧٦، ٧٧).

(٥) المرجع نفسه. (ج١٥، ص٣٤١).

(٦) سورة الأنبياء، الآية ٢٢.

(٧) أنظر: ابن دريد: جمهرة اللغة. (ج٢، ص٦٤٦)، وإبراهيم مصطفى: المعجم الوسيط. مرجعان سابقان، (ج٢، ص٦٨٨).

٤٩- (نفي العوج):

قال تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[١].

«وعِوَجُ الطّريقِ وعَوَجُه: زَيْغُه، وعِوَجُ الدِّينِ والخُلُقِ: فَسادُه ومَيْلُه على المَثَل»[٢].

ونفي الميل والزيغ يقتضي التسوية والاعتدال، وهذا توازن واضح هنا.

٥٠- (نفي الأمت):

قال تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[٣].

«والأمت: الانخفاض، والارتفاع، والاختلاف في الشيء»[٤].

ونفي الأمت يقتضي: التسوية والاستقامة، وهذا توازن ظاهر.

٥١- (نفي الفطور):

قال تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[٥].

«والفَطْرُ: الشَّقُّ، وجَمْعُه: فُطُورٌ»[٦].

وبنفي الفطور عن الخلق يتبين معنى التوازن المقصود هنا.

٥٢- (نفي التدارك بين الأشياء):

قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ﴾[٧].

«أدركتُ الرجلَ إدراكاً: إذا لحقته، فهو مُدْرَك»[٨].

«وتدارك القوم: لحق آخرهم أولهم. واستدركتُ ما فات وتداركته»[٩].

ونفي التدارك بين الأشياء يقتضي محافظتها على مواقعها وانتظام سيرها من دون زيادة في سرعتها أو نقصان، وهذا توازن واضح.

---

(١) سورة طه، الآية ١٠٧.

(٢) الزبيدي: تاج العروس. مرجع سابق، (ج٦، ص١٢١).

(٣) سورة طه، الآية ١٠٧.

(٤) ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق، (ج٢، ص٥).

(٥) سورة الملك، الآية ٣.

(٦) المحكم والمحيط الأعظم. مرجع سابق، (ج٩، ص١٥٢).

(٧) سورة يس، الآية ٤٠.

(٨) ابن دريد: جمهرة اللغة. مرجع سابق، (ج٢، ص٦٣٦).

(٩) الفيومي: المصباح المنير. مرجع سابق، (ج١، ص١٩٣).

٥٣- (نفي السبق بين الأشياء):

قال تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾[١].

«السين، والباء، والقاف: أصل واحد صحيح يدل على التقديم»[٢].

فنفي التجاوز والتقدم: يعني السير وفق سرعة معينة ومنتظمة، وهذا توازن جلي.

٥٤- (نفي الميد):

قال تعالى:﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾[٣].

«... الميد: هو الذهاب والمجيء، والاضطراب.

ومادت المرأة: ماست وتبخترت كما يميد الغصن»[٤].

ونفي الميد يعني الثبات والاستقرار، وهذا توازن بين في هذا المصطلح.

٥٥- (نفي التفاوت):

قال تعالى:﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾[٥].

«فَاتَهُ الأَمْرُ فَوْتاً وفَوَاتاً: ذَهَبَ عَنه...، والفَوْتُ: الخَلَلُ والفُرْجَةُ بينَ الإِصْبَعَيْنِ...، وتَفَاوَتَ الشَّيئانِ: أَي تَبَاعَدَ ما بَيْنَهُما»[٦].

وبنفي التفاوت في الشيء يتبين معنى التوازن.

وبهذا يكون الباحث قد أوضح دلالات التوازن في هذه الألفاظ والمصطلحات القرآنية.

وبالتالي فإن استخدام الباحث لأي لفظ من هذه الألفاظ السالفة الذكر في ثنايا صفحات هذا البحث، فإنما يقصد به الإشارة والاستدلال على معنى التوازن.

---

(١) سورة يس، الآية ٤٠.

(٢) ابن فارس: مقاييس اللغة. مرجع سابق، (ج٣، ص١٢٩).

(٣) سورة النحل، الآية ١٥.

(٤) الخليل: العين. مرجع سابق، (ج٨، ص٨٩).

(٥) سورة الملك، الآية ٣.

(٦) الزبيدي: تاج العروس. مرجع سابق، (ج٥، ص٣٣- ٣٥).

المبحث الثالث

حدود التوازن

من خلال بيان الألفاظ الدالة على التوازن والتي تم المرور عليها في المبحث السابق، يتبين أن للتوازن بشكل عام حدود مقدرة لا يخرج عنها، فما نقص عن حدوده الدنيا فإنه يكون مخلا ومفسدا، وما زاد على حدوده العليا، فإنه يكون مخلا ومفسدا أيضا، وسيتناول الباحث بيان هذا الأمر على النحو الآتي:

أولا: مفهوم الحد في اللغة والشرع:

١. مفهوم الحد في اللغة:

«الحد: الفصل بين الشيئين لئلا يختلط أحدهما بالآخر، أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر، وجمعه: حدود.

وفصل ما بين كل شيئين: حد بينهما، ومنتهى كل شيء حده ...

وأصل الحد: المنع والفصل بين الشيئين»[١].

فالحد يمثل النهاية والمعلم الذي ينتهي إليها المحدود، فيفصله ويميزه عن غيره.

٢. مفهوم الحد في الشرع:

لم يختلف مفهوم الحد في الشرع عن مفهومه في اللغة من كونه دال على معنى المنع، ولهذا يظهر من بيان علماء التفسير للفظ (حدود الله) أنهم لم يخرجوا فيه عن أصل معنى الحد الوارد في لغة العرب، وقد قال الطبري في بيانه لهذا اللفظ: «حدود الله: معالم فصول حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته»[٢].

وقال القرطبي[٣]: «وسميت حدود الله؛ لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها وأن يخرج منها ما هو منها، ومنها سميت الحدود في المعاصي؛ لأنها تمنع أصحابها

---

(١) ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق، (ج٣، ص١٤٠).

(٢) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٢، ص٤٧٩).

(٣) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرْح أبو عبد الله الأنصاري الأندلسي القرطبي، كان إماماً مفسراً ، ومن العلماء الزاهدين في الدنيا، له مصنفات عديدة منها: جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي القرآن، وكتاب التذكرة بأمور الآخرة، وغيرهما، استقر بمنية بني خصيب من الصعيد الأدنى بمصر، وتوفي =

من العود إلى أمثالها، ومنه سميت الحاد في العدة؛ لأنها تمتنع من الزينة»[1].

وقال الرازي: «والحدود: هي الموانع عن المجاوزة نحو النواهي.

والحد في الحقيقة: هي النهاية التي ينتهي إليها الشيء»[2].

وعلى الرغم من أن الحدود تطلق على أكثر من معنى إلا أنها ترجع إلى أصل واحد وهو المنع، ويتبين من قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[3]، أن الحدود في الآية تدل على محارم الله تعالى التي هي معلم يجب الامتناع من القرب منها، ويؤيد هذا المعنى ما ورد من حديث النُّعْمَانَ بن بَشِير[4] – رضي الله عنهما – سمعت رَسُولَ –ﷺ– يقول: "... ألا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ألا إِنَّ حِمَى اللَّهِ في أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ ..."[5].

ويظهر –أيضا– من قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[6]، أن المراد بالحدود «أحكامه التي أمر بالوقوف عندها»[7]، وهي ما حده الشرع وقدّره من تكاليف وأحكام لا يجوز فيها الزيادة ولا النقصان، كالمواريث المعينة ونحو ذلك.

= بها، ودفن في شوال من سنة إحدى وسبعين وستمائة. أنظر: إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج١، ص٣١٧، ٣١٨)، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات. تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، (ج٢، ص٨٧).

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. مرجع سابق، (ج٢، ص٣٣٧).

(٢) الرازي: التفسير الكبير. مرجع سابق، (ج٣٠، ص٣٠).

(٣) سورة البقرة، الآية ١٨٧.

(٤) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة بن جلاس بن زيد الأنصاري الخزرجي، يكنى أبا عبد الله، كان أول مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة بأربعة عشر شهرا، له ولأبيه صحبة، استعمله معاوية على الكوفة وكان خطيباً، ولما استخلف معاوية بن يزيد ومات عن قرب دعا النعمان إلى بن الزبير، ثم دعا إلى نفسه فواقعه مروان بن الحكم فقتله، وذلك في سنة خمس وستين. أنظر: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي: الإصابة في تمييز الصحابة. تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، (ج٦، ص٤٤٠).

(٥) رواه البخاري في صحيحه. (ج١، ص٢٨، حديث رقم : ٥٢)، ومسلم في صحيحه. مرجعان سابقان، (ج٣، ص١٢١٩، حديث رقم : ١٥٩٩).

(٦) سورة البقرة، الآية ٢٢٩.

(٧) الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل. مرجع سابق، (ج١، ص٧٢).

وبالنسبة لتسمية العقوبات بالحدود، فذلك لأنها مقدرة ومحددة بأوصاف معينه تمتنع فيها الزيادة والنقصان، كجلد الزاني غير المحصن مائة جلدة، ونحو ذلك، وقد تكون تسمية العقوبات بالحدود راجعة إلى أصل الحد الذي هو المنع، أو لكونها تمنع من المعاودة إلى مثل تلك المعصية، أو أن التسمية راجعة إلى المحارم لكون العقوبات تزجر عنها وتمنع من معاودتها.

«وَلا يَخْتَلِفُ الناس أَنَّ حَدَّ الشَّيْءِ: ما يَمْنَعُ دُخُولَ غَيْرِهِ فيه وَيَمْنَعُ خُرُوجَ بَعْضِهِ منه...، فإن أَعْلَمَ الْخَلْقِ بِالدِّينِ أَعْلَمُهُمْ بِحُدُودِ الأَسْمَاءِ التي عُلِّقَ بها الْحِلُّ وَالْحُرْمَةُ. وَالأَسْمَاءُ التي لها حُدُودٌ في كَلامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثَلاثَةُ أَنْوَاعٍ:

أ- نَوْعٌ له حَدٌّ في اللُّغَةِ، كَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَمَنْ حَمَلَ هذه الأَسْمَاءَ على غَيْرِ مُسَمَّاهَا، أو خَصَّهَا بِبَعْضِهِ، أو أَخْرَجَ منها بَعْضَهُ فَقَدْ تَعَدَّى حُدُودَهَا .

ب- وَنَوْعٌ له حَدٌّ في الشَّرْعِ، كَالصَّلاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَالزَّكَاةِ وَالإِيمَانِ وَالإِسْلامِ وَالتَّقْوَى وَنَظَائِرِهَا، فَحُكْمُهَا في تَنَاوُلِهَا لِمُسَمَّيَاتِهَا الشَّرْعِيَّةِ كَحُكْمِ النَّوْعِ الأَوَّلِ في تَنَاوُلِهِ لِمُسَمَّاهُ اللُّغَوِيِّ .

ج- وَنَوْعٌ له حَدٌّ في الْعُرْفِ لم يَحُدَّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِحَدٍّ غَيْرِ الْمُتَعَارَفِ، وَلا حَدَّ له في اللُّغَةِ، كَالسَّفَرِ وَالْمَرَضِ الْمُبِيحِ لِلتَّرَخُّصِ، وَالسَّفَهِ وَالْجُنُونِ الْمُوجِبِ لِلْحَجْرِ، وَالشِّقَاقِ الْمُوجِبِ لِبَعْثِ الْحَكَمَيْنِ، وَالنُّشُوزِ الْمُسَوِّغِ لِهَجْرِ الزَّوْجَةِ وَضَرْبِهَا، وَالتَّرَاضِي الْمُسَوِّغِ لِحَلِّ التِّجَارَةِ، وَالضِّرَارِ الْمُحَرَّمِ بين الْمُسْلِمِينَ، وَأَمْثَالِ ذلك، وَهَذَا النَّوْعُ في تَنَاوُلِهِ لِمُسَمَّاهُ الْعُرْفِيِّ كَالنَّوْعَيْنِ الآخَرَيْنِ في تَنَاوُلِهِمَا لِمُسَمَّاهُمَا»[1].

وهكذا فإن كل شيء في الوجود له حد لا يخرج عنه سواء كان حسيا أو معنويا، ولولا هذه الحدود الضابطة المميزة للشيء عن غيره لحدث الفساد والخلل بسبب الطغيان والتجاوز في حدود هذه الأشياء مع بعضها البعض.

---

(1) أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي: إعلام الموقعين عن رب العالمين. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م، (ج١، ص٢٦٦، ٢٦٧).

ثانيا: نبذ الحدود المذمومة:

يكتنف التوازن حدود مذمومة تمثل النهايات والمعالم والموانع لحيز التوازن التشريعي، وهذه الحدود أمر الشارع الحكيم بنبذها وعدم القرب منها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1]، وقوله عز من قائل: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾[2]، وهي قسمان: حدود عليا تتمثل في الغلو، وحدود دنيا تتمثل في التقصير، وسيبينها الباحث على النحو الآتي:

١. نبذ الغلو:

لقد وردت آيات متعددة في القرآن تذم الغلو وتنهى عنه، ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾[3]، وقوله سبحانه:﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾[4].

«وأما الغلو: فهو المبالغة في الشيء والتشديد فيه بتجاوز الحد، وفيه معنى التعمق. يقال: غلا في الشيء يغلو غلوا، وغلا السعر يغلو غلاء: إذا جاوز العادة، والسهم يغلو غلوا . بفتح ثم سكون .: إذا بلغ غاية ما يرمي»[5].

وقيل: «الغلو: هو مجاوزة الحد في مدح الشيء أو ذمه، وضابطه: تعدي ما أمر الله به وهو الطغيان الذي نهى الله عنه في قوله: ﴿ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ﴾[6]»[7].

وغالبا ما يقترن الغلو بالتنطع والتشدد، وقد جاءت روايات تبين هذا الأمر،

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٢٩.

(٢) سورة الطلاق، الآية ١.

(٣) سورة النساء، الآية ١٧١.

(٤) سورة المائدة، الآية ٧٧.

(٥) أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي: فتح الباري شرح صحيح البخاري. تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج١٣، ص٢٧٨).

(٦) سورة طه، الآية ٨١.

(٧) سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد. مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج١، ص٢٦٥).

ومنها ما ورد عن ابن عَبَّاسٍ[1] – رضي الله عنهما– قال: قال رسول اللَّهِ –ﷺ–: "... يا أَيُّهَا الناس إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ في الدِّينِ، فإنه أَهْلَكَ من كان قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ في الدِّينِ"[2].

وخطاب النبي–ﷺ–هنا خطاب عام يتناول النهي عن الغلو في كل جزئيات الدين. ولخطورة الغلو على الأمة بين النبي–ﷺ– أنه كان سببا في هلاك كثير من الأمم التي من قبلنا، ولهذا فإن الاستمرار على الغلو والتنطع يؤدي إلى الهلاك الذي حل بالأمم السالفة، وقد قال النبي –ﷺ–: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ. قَالَهَا ثَلاثًا»[3].

والمتنطعون: «أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم»[4].

والذي يظهر هنا أن المغالاة المذمومة هي التي يصل بها صاحبها إلى مجاوزة الحد فيخرج بها عن المشروع ويصل بنفسه إلى حد المشقة، وأما طلب الأكمل في العبادة وأمور الدين فليس من الغلو المذموم في شيء، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾[5].

فغير الحق هو الغلو، وأما الحق فليس بغلو.

---

(1) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي ابن عم النبيﷺ، كنيته أبو العباس، مات النبي وقد استوفى ثلاث عشرة ودخل في أربع عشرة سنة، وكان قد قرأ المحكم علي عهده ﷺ، دعا له النبي ﷺ بالفقه في دين الله، وعلّم تأويل كتابه، مات بالطائف سنة ثمان وستين، وقيل: سنة سبعين، وصلى عليه محمد بن الحنفية. أنظر: أحمد بن علي بن منجويه الأصبهاني أبو بكر: رجال صحيح مسلم. تحقيق: عبد الله الليثي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ، (ج١، ص٣٣٩).

(2) أخرجه محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني: سنن ابن ماجه. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٢، ص١٠٠٨، حديث رقم: ٣٠٢٩)، وصححه محمد ناصر الدين الألباني في السلسلة الصحيحة المختصرة. مكتبة المعارف، الرياض، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٣، ص٢٧٨، حديث رقم: ١٢٨٣).

(3) أخرجه مسلم في صحيحه. مرجع سابق، (ج٤، ص٢٠٥٥، حديث رقم: ٢٦٧٠).

(4) أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي: صحيح مسلم بشرح النووي. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ، (ج١٦، ص٢٢٠).

(5) سورة المائدة، الآية ٧٧.

وقد جاءت في القرآن الكريم ألفاظ نهى عنها الشرع وذمها لكونها تتضمن معنى الغلو الباطل المجاوز للحد، وسيورد الباحث بعضا منها بإيجاز، وذلك على النحو الآتي:

الطغيان، قال تعالى:﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ﴾[2].

أ- قال الطبري في تأويل: ﴿ولا تطغوا﴾، أي «ولا تعدوا أمره إلى ما نهاكم عنه»[3].
وقال الشوكاني: «الطغيان: التجاوز، أي لا تتجاوزوا ما هو جائز إلى ما لا يجوز»[4].

ب- **الإفراط**، قال تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴾[5]، قال الطبري في بيانه: «وأما الإفراط: فهو الإسراف، والإشطاط، والتعدي، يقال منه: أفرطت في قولك: إذا أسرف فيه وتعدى»[6].

ج- **الاعتداء**، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[7]، قال الطبري في بيان معنى ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾: «ولا تعتدوا حد الله الذي حد لكم فيما أحل لكم وفيما حرم عليكم، فتجاوزوا حده الذي حده فتخالفوا بذلك طاعته، فإن الله لا يحب من اعتدى حده الذي حده لخلقه فيما أحل لهم وحرم عليهم»[8].

د- **الشطط**، قال تعالى: ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾[9]، **وقوله:**﴿ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ

---

(1) سورة الرحمن، الآية ٨.
(2) سورة هود، الآية ١١٢.
(3) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١٢، ص١٢٦).
(4) الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج٣، ص٣٧٩).
(5) سورة طه، الآية ٤٥.
(6) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١٦، ص١٧٠).
(7) سورة المائدة، الآية ٨٧.
(8) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٧، ص٨).
(9) سورة ص، الآية ٢٢.

دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾[1]، قال الشنقيطي[2]: «... والشطط: البعد عن الحق والصواب، وإليه ترجع أقوال المفسرين، كقول بعضهم﴿ شَطَطًا ﴾: جوراً، تعدياً، كذباً، خطأً إلى غير ذلك من الأقوال .

وأصل مادة الشطط: مجاوزة الحد، ومنه أشط في السوم: إذا جاوز الحد، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ »[3]، وكل ما نهى عنه الشارع الحكيم مما أورده في كتابه الكريم، فإنه يحمل دلالة واضحة على الغلو، كالظلم، والفساد، والإسراف، ونحو ذلك من الألفاظ التي تضمنها القرآن الكريم .

فتبين بهذا أن الغلو المذموم هو ما جاوز حد الشرع، وخرج بصاحبه عن النهج المسنون، وأما طلب الأكمل والتمسك بما ورد في الشرع الحكيم وتحري الدقة والمتابعة لما كان عليه محمد -ﷺ- وصحبه فليس بغلو، بل هو استقامة حسنة.

والظاهر أن الغلو المذموم في الدين المذكور في قوله تعالى: ﴿ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾[4] ينقسم إلى قسمين: غلو اعتقادي، وغلو عملي.

فيدخل في الغلو الاعتقادي كل غلو يتعلق بأمور الاعتقاد.

ويدخل في الغلو العملي كل ما يتعلق بقول اللسان، وفعل الجوارح.

٢. نبذ التقصير:

ليس التقصير أفضل حالا من الغلو، فالتقصير مذموم في الشرع الحنيف كالغلو تماما، فهو يمثل الطرف المقابل للغلو، ويعبر عنه بالتفريط لما يحمله من دلالات على التقصير والتضييع والتهاون والترك، وقد ورد لفظ التفريط في آيات متعددة، سيتناول الباحث بعضها لتوضيح مدلول التفريط فيها بصورة مختصرة، وذلك كما يلي:

---

(١) سورة الكهف، الآية ١٤.

(٢) هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، ولد سنة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م، مفسر، ومدرس من علماء شنقيط (موريتانيا)، ولد وتعلم بها، واستقر مدرسا في المدينة المنورة ثم الرياض، له مصنفات عديدة منها: أضواء البيان في تفسير القرآن، وغيره، توفي بمكة سنة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م. أنظر: الزركلي: الأعلام. مرجع سابق، (ج٦، ص٤٥).

(٣) محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. تحقيق مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، (ج٣، ص٢١).

(٤) سورة المائدة، الآية ٧٧.

أ- قولـه تعـالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾[1].

قال أبو السعود: «والتفريط: التقصير في الشيء مع القدرة على فعله.

وقيل: هو التضييع، وقيل: الفرط: السبق، ومنه الفارط: أي السابق»[2].

ب- وفي قوله تعالى:﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[3].

قال الطبري: «فإن معناه: ما ضيعنا إثبات شيء منه»[4].

ج- وقوله تعالى:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾[5].

قال الزمخشري: «يُفَرّطُونَ - بالتشديد والتخفيف- فالتفريط: التواني والتأخير عن الحدّ. والإفراط: مجاوزة الحدّ، أي لا ينقصون مما أمروا به أو لا يزيدون فيه»[6].

د- وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[7].

قال الشنقيطي: تأويل ﴿ فُرُطًا ﴾:«هو من التفريط الذي هو التقصير وتقديم العجز بترك الإيمان، وعلى هذا فمعنى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ أي كانت أعماله سفهاً وضياعاً وتفريطاً»[8].

هـ- وقوله تعالى:﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ﴾[9].

قال الشوكاني في تأويله: أي «قصرتم في شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه»[10].

---

(1) سورة الأنعام، الآية ٣١.

(2) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. مرجع سابق، (ج٣، ص١٢٥)، وانظر: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: تفسير الجلالين. دار الحديث، القاهرة، ط١، (د - ت)، (ج١، ص١٦٦).

(3) سورة الأنعام، الآية ٣٨.

(4) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٧، ص١٨٨).

(5) سورة الأنعام، الآية ٦١.

(6) الزمخشري: الكشاف. مرجع سابق، (ج٢، ص٣٢).

(7) سورة الكهف، الآية ٢٨.

(8) الشنقيطي: أضواء البيان. مرجع سابق، (ج٣، ص٢٦٥).

(9) سورة يوسف، الآية ٨٠.

(10) الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج٣، ص٤٦).

و – وقوله تعالى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ﴾[1].

قال الشنقيطي في تفسيره: «أي متروكون منسيون في النار»[2].

وقد جاء في الصحيح قول النبي –ﷺ– "...أَمَا إنه ليس في النَّوْمِ تَفْرِيطٌ إنما التَّفْرِيطُ على من لم يُصَلِّ الصَّلاةَ حتى يَجِيءَ وَقْتُ الصَّلاةِ الأُخْرَى، فَمَنْ فَعَلَ ذلك فَلْيُصَلِّهَا حين يَنْتَبِهُ لها، فإذا كان الْغَدُ فَلْيُصَلِّهَا عِنْدَ وَقْتِهَا..."[3].

فظهر أن التفريط هو ما يكون عن قصد وقدرة، وأما ما يكون خارجا عن قدرة الإنسان فلا يكون ذلك تفريطا، ومما يدل على هذا الأمر قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴾[4]، فالتعمد في إضاعة الصلاة واتباع الشهوات هو عين التفريط، ولذلك قيل في معنى«﴿ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: تركوها، أو أخروها عن وقتها»[5].

وقد ورد في القرآن أيضا ألفاظ أخرى تشير إلى نبذ التقصير، كالنهي عن إنقاص المكيال والميزان، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ ﴾[6].

وكذا النهي عن الإخسار، كما في قوله: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴾[7].

ومما لا شك فيه أن إنقاص الحقوق وإخسارها والتواني في الوفاء بها تفريط وتقصير. وترك الواجبات المأمور بها شرعا مع توفر القدرة على ذلك تفريط عظيم في جنب الله تعالى ينجم عن خمود جذوة الإيمان في القلوب، وجهل عظيم بعظمة الشرع والمشرع سبحانه وتعالى، وهو كالغلو – أيضا– يشمل العقائد والمعاملات.

وبهذا يتضح أن السلامة تكمن في البعد عن طرفي الغلو والتقصير، وأن القرب من هذين الطرفين مزلة أقدام تُخرج عن الطريق الأعدل والخيار.

---

(1) سورة النحل، الآية ٦٢.

(2) الشنقيطي: أضواء البيان. مرجع سابق، (ج٢، ص٣٩٥).

(3) أخرجه مسلم في صحيحه. مرجع سابق، (ج١، ص٤٧٢ ، ٤٧٣، حديث رقم: ٦٨١).

(4) سورة مريم، الآية ٥٩.

(5) البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل. مرجع سابق، (ج٤، ص٢٣).

(6) سورة هود، الآية ٨٤.

(7) سورة الرحمن، الآية ٩.

ثالثا: حيز التوازن التشريعي:

ورد في القرآن الكريم الثناء من الله تعالى للمحافظين لحدوده والواقفين عند أوامره ونواهيه بقوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾[1]، وهذا الثناء«هو أتم ما يكون من المبالغة في الوصف بطاعة الله والقيام بأوامره والانتهاء عن زواجره، وذلك لأن لله تعالى حدودا في أوامره وزواجره، وما ندب إليه ورغب فيه أو أباحه، وما خير فيه، وما هو الأولى في تحري موافقة أمر الله، وكل هذه حدود الله»[2].

فامتثال أمر الله ونهيه من دون تجاوز لحدودهما هو التوازن المعني في الشرع الحكيم، وعند التأمل في قوله تعالى:﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾[3]، وقوله﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾[4]، يتضح أن الحيز الذي يمثله التوازن في الشرع الحكيم هو ما بين قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾، وقوله: ﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾، فالآية الأولى تنهي عن القرب من المحرمات، وبالتالي فهي تشير إلى الحد الأول للحرام، وأن حيز الحلال يبدأ من دون هذا الحد. والآية الثانية تمثل الحد الذي ينتهي إليه الحلال، وأن تجاوز هذا الحد يخرج من حيز الحلال ومنتهاه إلى الحرام .

وبما أن أوامر الله تعالى ونواهيه هي الحدود والمعالم التي نستطيع أن نميز بها ما يدخل في حيز التوازن وما يخرج عنه، فما بين حدي امتثال الأمر واجتناب النهي يقع حيز التوازن للشرع الحنيف.

وقد أشار الزمخشري إلى هذا الحيز بقوله:«فإن قلت: كيف قيل: ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ مع قوله:﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ ؟ ... قلتُ: من كان في طاعة الله والعمل بشرائعه، فهو متصرف في حيز الحق فنهى أن يتعداه؛ لأن من تعداه وقع في حيز الباطل...»[5].

---

(1) سورة التوبة، الآية ١١٢.

(2) أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر: أحكام القرآن. تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، (ج٤، ص٣٦٨)، وانظر: أبو السعود: إرشاد العقل السليم. مرجع سابق (ج٤، ص١٠٧).

(3) سورة البقرة، الآية ١٨٧.

(4) سورة البقرة، الآية ٢٢٩.

(5) الزمخشري: الكشاف. مرجع سابق، (ج١، ص٢٥٩).

وتكلم عنه الرازي بقوله: «أن من كان في طاعة الله والعمل بشرائعه فهو متصرف في حيز الحق فنهى أن يتعداه؛ لأن من تعداه وقع في حيز الضلال، ثم بولغ في ذلك فنهى أن يقرب الحد الذي هو الحاجز بين حيز الحق والباطل لئلا يداني الباطل وأن يكون بعيداً عن الطرف فضلاً أن يتخطاه»[1].

وهذه الحدود التي تكتنف حيز الحق قد تكون من الأقوال أو الأفعال أو الأوقات، فكلها معالم ينتهي إليها حيز الحق، فلا يجوز مجاوزتها، فالوقت – مثلا– يمثل معلما كبيرا وحدا ينتهي إليه حيز الحق؛ ذلك لأن «كل عمل في الشريعة فهو: إما معلق بوقت محدود الطرفين، أو بوقت محدود المبدأ غير محدود الآخر، فما كان معلقا بوقت محدود الطرفين: لم يجز أن يوفي به في غير وقته، ولا قبل وقته، ولا بعده إلا بنص أو إجماع بالمجيء به في غير وقته فيوقف عنده وإلا فلا، كالصلاة، وصيام رمضان، والحج، والأضحية، ونحو ذلك.

وما كان معلقا بوقت محدود الأول غير محدود الآخر: فلا يجزي قبل وقته.

فإذا وجب لدخول وقته لم يسقط أبدا، كالزكاة، والكفارات، وقضاء المسافر والمريض والحائض والنفساء والمبقى في رمضان، وما أشبه ذلك ...»[2].

وتزداد حدود التوازن الشرعي وضوحا بحديث النواس بن سمعان[3] –ﷺ–عن رسول الله – ﷺ – قال: "ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس أدخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا. وداع يدعو من فوق الصراط. فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط: هو الإسلام. والسوران: حدود الله. والأبواب المفتحة: محارم الله. وذلك

---

(1) الرازي: التفسير الكبير. مرجع سابق، (ج٥، ص٩٩).

(2) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد : النبذة الكافية في أحكام أصول الدين. تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، (ج١، ص٥١).

(3) هو النواس بن سمعان بن خالد بن عمرو بن قرط بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب العامري الكلابي، له ولأبيه صحبة، وحديثه عند مسلم في صحيحه. ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة. مرجع سابق، (ج٦، ص٤٧٨).

الداعي على رأس الصراط: كتاب الله. والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم"[1].

فالحديث وضّح أن الصراط المستقيم له حدان يكتنفانه ويفصلان بينه وبين محارم الله تعالى، ثم بين أن حيز التوازن الذي يشغله الصراط المستقيم هو الإسلام كله بجميع مفرداته، وأن كل أمْر فيه له حدان يكتنفان حيزه هما: الحد الأدنى، والحد الأعلى، فالنزول عن الحد الأدنى يسمى تفريط، وتجاوز الحد الأعلى يسمى إفراط.

وبين الحدين الأدنى والأعلى ثلاث مراتب:

أ- مرتبة واجبة .

ب- مرتبة حسنة وسطى تقع فيها درجات التوسع الحسن غير الواجب وفيها نفع.

ج- مرتبة عليا تقع فيها درجات الكمال النسبي.

وبعد آخر درجة من درجات هذه المرتبة العليا تهوي دركات الغلو الضار.

وظهر لنا أن النزول عن دنيا هذه المراتب تفريط بأقل ما يجب فيها وهو مذموم، وقد يكون ضاراً. وأن تجاوز حدود علياها غلو، وهو -أيضاً- مذموم، وقد يكون ضاراً، أو فيه عدوان على ما هو لغيرها من حقائق[2].

وبهذا تبين أن مجاوزة حكم من أحكام الدين، أو التنازل عنه، أو التساهل في العمل به في غير توجيه من الشرع الحكيم بحجة التوازن فإنه خارج عنه ولا يجوز فعله؛ لأن كل أحكام الدين متوازنة لكل الأحوال والظروف والأوقات التي قد يمر بها المكلف في هذه الحياة الدنيا.

---

(1) أخرجه أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني في مسنده. مؤسسة قرطبة، مصر، طبعة بدون ترقيم، (د - ت)، (ج٤، ص١٨٢، حديث رقم: ١٧٦٧٣)، ومحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي في الجامع الصحيح، سنن الترمذي. تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د - ت)، (ج٥، ص١٤٤، حديث رقم: ٢٨٥٩)، وأحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي في السنن الكبرى. تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، (ج٦، ص٣٦١، حديث رقم: ١١٢٣٣)، ومحمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، (ج١، ص١٤٤، حديث رقم: ٢٤٥)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولا أعرف له علة، ولم يخرجاه.

(2) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: بصائر المسلم المعاصر. دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، بتصرف، (ص٢٨٢، ٢٨٣).

وقد ضرب النبي– ﷺ – مثالا بيّن من خلاله الفرق بين من يلازم حيز التوازن المطلوب منه شرعا من دون أن يتعدى حدوده المخرجة عنه إلى غيره، وبين من تخطى هذه الحدود فوقع في ما نهى عنه الشرع الحنيف بقوله– ﷺ –: "مَثَلُ الْقَائِمِ على حُدُودِ اللَّهِ، وَالْوَاقِعِ فيها، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا على سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ في أَسْفَلِهَا إذا اسْتَقَوْا من الْمَاءِ مَرُّوا على من فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لو أَنَّا خَرَقْنَا في نَصِيبِنَا خَرْقًا ولم نُؤْذِ من فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وما أَرَادُوا هَلَكُوا جميعا، وَإِنْ أَخَذُوا على أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جميعا"(١).

وبهذا يخلص الباحث إلى أن التوازن في الشرع الحكيم يتضمنه الإسلام بكل مفرداته، وأن حدوده التي ينتهي إليها هي المحارم التي يجب الانتهاء عندها، فهي تمثل الأطراف والمعالم التي تفصل التوازن الشرعي عن غيره، وأن الحيز الذي يشغله التوازن له ثلاث مراتب لا يسمح فيها للمكلف بالنزول عن أدناها ولا أن يتجاوز علياها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٢، ص٨٨٢، حديث رقم: ٢٣٦١).

الفصل الثاني:
مقاصد التوازن في القرآن الكريم

ويحتوي على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : الاستقامة على الصراط المستقيم .
المبحث الثاني : تحقيق الوسطية .
المبحث الثالث : إقامة العدل والدوام عليه.

المبحث الأول

الاستقامة على الصراط المستقيم

لقد ورد لفظ **الصراط المستقيم** في القرآن الكريم عشرات المرات، وورد أيضاً بلفظ: **صراطاً مستقيما**، و **صراطك المستقيم**، و **صراطي مستقيماً**، ونحو ذلك.

فورد في سورة الفاتحة قول الله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[1]، وفي البقرة جاء قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[1]، وفي سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۗ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾[2].

---

(1) سورة الفاتحة، الآية ٦.

وأما سورة الأنعام فإنها من أكثر السور التي ورد فيها الحديث عن الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾[٥]، وقال جل وعلا: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[٧].

وفي سورة إبراهيم قُرن الصراط بالعزيز الحميد، قال تعالى: ﴿ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾[٨].

وفي سورة طه وُصِف الصراط بالسوي، قال تعالى: ﴿ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾[٩]، وفي سورة الحج أضافه للحميد، قال تعالى: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾[١٠].

وفي سورة المؤمنون ورد معرفاً من دون أن يضيفه أو يسند إليه وصفاً، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴾[١١].

وفي سورة مريم يقول إبراهيم – عليه السلام – لأبيه: ﴿ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾[١٢].

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية ٥١.
(٣) سورة الأنعام، الآية ٣٩.
(٤) سورة الأنعام، الآية ٨٧.
(٥) سورة الأنعام، الآية ١٢٦.
(٦) سورة الأنعام، الآية ١٥٣.
(٧) سورة الأنعام، الآية ١٦١.
(٨) سورة إبراهيم، الآية ١.
(٩) سورة طه، الآية ١٣٥.
(١٠) سورة الحج، الآية ٢٤.
(١١) سورة المؤمنون، الآية ٧٤.
(١٢) سورة مريم، الآية ٤٣.

فهذه بعض الآيات التي وردت في الصراط المستقيم، وسيتناول الباحث هذا المقصد بشئ من التفصيل للإلمام ببعض أبعاده من خلال تتبع ما قاله علماء التفسير عند تناولهم له، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: معنى الصراط المستقيم:

قال الطبري في تأويله لقوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[1]: «أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم: هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه وذلك في لغة جميع العرب...، ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل وصف باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته والمعوج باعوجاجه... – ثم قال –: وإنما وصفه الله بالاستقامة؛ لأنه صواب لا خطأ فيه... – ثم قال أيضا –: وكل حائد عن قصد السبيل وسالك غير المنهج القويم، فضال عند العرب لإضلاله وجه الطريق»[2].

وقد أورد ابن كثير أقوال المفسرين في الصراط المستقيم، ومنها:

ما رواه علي بن أبي طالب[3] –ﷺ– عن النبي –ﷺ– أنه قال: «وذكر القرآن، فقال: هو الصراط المستقيم»[4].

وقال عبدالله بن مسعود[5]–ﷺ–: الصراط المستقيم: كتاب الله تعالى.

---

(1) سورة الفاتحة، الآية ٦.

(2) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١، ص٧٣، ٧٤، ٧٥، ٨٤).

(3) هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، وزوج ابنته، وهو من السابقين الأولين، وأحد العشرة، مات وله ثلاث وستون على الأرجح، وهو يومئذ أفضل الأحياء من بني آدم بالأرض بإجماع أهل السنة، وكانت وفاته في رمضان سنة أربعين. أنظر: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل = = العسقلاني الشافعي: تقريب التهذيب. تحقيق: محمد عوامة بن حجر، دار الرشيد، سوريا، ط١، ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م، (ج١، ص٤٠٢).

(4) أخرجه أحمد في مسنده مختصرا. مرجع سابق، (ج١، ص٩١، حديث رقم: ٧٠٤)، وعبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي في سننه. تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٧، (ج٢، ص٥٢٧، حديث رقم: ٣٣٣٢)، والترمذي في سننه. مرجع سابق، (ج٥، ص١٧٢، حديث رقم: ٢٩٠٦)، وَإِسْنَادُهُ مَجْهُولٌ، وفي الحارث مَقَالٌ.

(5) هو عبد الله بن مسعود ابن غافل بن حبيب بن شمخ بن قار بن مخزوم بن صاهلة، أبو عبد الرحمن الهذلي المكي، حليف بني زهرة، كان من السابقين الأولين،ومن مهاجرة الحبشة شهد بدرا، واحتز رأس أبي جهل فأتى به النبي ﷺ، أحد من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ وأقرأه، مات بالمدينة في آخر سنة اثنتين وثلاثين. أنظر:

وقال جابر بن عبدالله[1] -رضي الله عنه-: هو الإسلام، وهو أوسع مما بين السماء والأرض، ويؤيد هذا ما رواه النواس بن سمعان -رضي الله عنه- عن رسول -ﷺ- قال: " ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس أدخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا. وداع يدعو من فوق الصراط. فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط هو الإسلام ..."[2].

وقيل: الصراط المستقيم: دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره.

وقيل: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، هو النبي ﷺ وصاحباه من بعده.

وقال مجاهد: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، قال: الحق.

وقيل: الصراط المستقيم: هو الذي تركنا عليه رسول الله ﷺ[3].

وكل هذه الأقوال صحيحة وغير متعارضة، وقد جمع بينها الحسن البصري[4]، حيث قال:

«وكل هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة، فإن من اتبع النبي -ﷺ-، واقتدى باللذين من بعده أبي بكر[1] وعمر[2]- رضي الله عنهما- فقد اتبع الحق، ومن اتبع

محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار. تحقيق: بشار عواد معروف، شعيب الأرناؤوط، صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ، (ج١، ص٣٢، ٣٦).

(١) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن عمرو بن سواد بن سلمة، ويقال: ابن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة السلمي الأنصاري المديني، كنيته أبو عبدالله، شهد بدرا مع النبي ﷺ، وقيل: شهد العقبة مع أبيه، وهو آخر من مات بالمدينة بعد أن عمي، وصلى عليه أبان بن عثمان وهو والي المدينة سنة ثمان أو تسع وسبعين، وكان له يوم مات أربع وتسعون سنة. أنظر: ابن منجويه: رجال مسلم. مرجع سابق، (ج١، ص١١٣).

(٢) أنظر تخريجه: (ص٥٢).

(٣) أنظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج١، ص٢٨، ٢٩).

(٤) هو الحسن بن يسار البصري الفقيه القارئ الزاهد إمام أهل البصرة، ولد بالمدينة سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر، سمع من عثمان وهو يخطب، وشهد يوم الدار، ورأى طلحة وعليا، وكان يدلس ويرسل ويحدث بالمعاني، وكان رأسا في الوعظ والتذكير، مات ليلة الجمعة سنة عشر ومائة، وعمره تسع وثمانون سنة، وقيل: ست وتسعون سنة. أنظر: الصفدي: الوافي بالوفيات. مرجع سابق، (ج١٢، ص١٩٠، ١٩١).

الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن وهو كتاب الله وحبله المتين وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضا»[٣] .

وقال الطبري: «والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي، أعني ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، أن يكون معنيا به: وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم؛ لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء، فقد وفق للإسلام وتصديق الرسل والتمسك بالكتاب والعمل بما أمر الله به والانزجار عما زجره عنه واتباع منهج النبي – ﷺ– ومنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وكل عبدٍ للهِ صالح، وكل ذلك من الصراط المستقيم»[٤].

وقال ابن كثير: «اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول»[٥].

ولابن تيمية[٦] كلام نفيس في نفي التناقض والتضاد الحاصل في اختلاف المفسرين، في بيانهم لمعنى الصراط المستقيم، حيث قال: إن الاختلاف الواقع من

---

(١) هو عبد الله بن أبي قحافة واسمه عثمان القرشي التيمي أبو بكر الصديق، خليفة رسول الله ﷺ، وأول من أسلم، وشهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها، ولي الخلافة بعد النبي ﷺ سنتين وأشهرا، توفي في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وهو بن ثلاث وستين سنة ودفن مع النبي ﷺ في حجرة عائشة. أنظر: عبدالرحمن ابن أبي بكر أبو الفضل السيوطي: اسعاف المبطأ برجال الموطأ. المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، (ج١، ص١٦).

(٢) هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر أبو حفص، أمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة، ولي الخلافة من لدن توفي أبو بكر، وذلك يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة إلى أن طعن يوم الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة، ومات بعد ذلك بثلاث يوم السبت غرة المحرم سنة أربع وعشرين، وهو بن خمس وخمسين أو خمس وستين. أنظر: سليمان بن خلف بن سعد أبو الوليد الباجي: التعديل والتجريح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح. تحقيق: د. أبو لبابة حسين، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، (ج٣، ص٩٣٥).

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج١، ص٢٩).

(٤) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١، ص٧٤).

(٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج١، ص٢٨).

(٦) هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتي شهاب الدين عبد الحليم ابن تيمية ابن شيخ الإسلام مجد الدين عبدالسلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني أحد الأعلام، ولد في ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة، برع في علوم الإسلام المختلفة، وعلم الكلام وغير ذلك، وكان من الأذكياء، والزهاد، ألَّف ثلاثمائة مجلدة، وامتحن وأوذي

المفسرين وغيرهم ليس فيه تضاد وتناقض، وإنما هو اختلاف فى الصفات، فإن الله سبحانه إذا ذكر في القرآن اسماً مثل قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، فكل من المفسرين يعبر عن الصراط المستقيم بعبارة يدل بها على بعض صفاته، وكل ذلك حق بمنزلة ما يسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء كل اسم منها يدل على صفة من صفاته، فيقول بعضهم: الصراط المستقيم: كتاب الله، أو اتباع كتاب الله.

ويقول الآخر: الصراط المستقيم: هو الاسلام، أو دين الإسلام.

ويقول الآخر: الصراط المستقيم: هو السنة والجماعة .

ويقول الآخر: الصراط المستقيم: طريق العبودية، أو طريق الخوف والرجاء والحب وامتثال المأمور واجتناب المحظور، أو متابعة الكتاب والسنة، أو العمل بطاعة الله، أو نحو هذه الأسماء والعبارات، ومعلوم أن المسمى هو واحد وإن تنوعت صفاته، وتعددت أسماؤه وعباراته، كما إذا قيل: محمد هو أحمد، وهو الحاشر، وهو الماحى، وهو العاقب، وهو خاتم المرسلين، وهو نبى الرحمة، وهو نبى الملحمة[1].

فهذه بعض أقوال المفسرين في معنى الصراط المستقيم، كما وردت في سورة الفاتحة، وحيث ورد في القرآن آيات كثيرة ذُكر فيها الصراط المستقيم، فإنها لا تختلف في معناها عن المعنى الذي ذكر آنفا، ولإيضاح ذلك فسيورد الباحث مجموعة من الآيات مع تفسيرٍ موجز لها، وذلك كما يلي:

١. قال الله تعالى: ﴿ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[2].

قال مجاهد: «وسددناهم فأرشدناهم إلى طريق غير معوج، وذلك دين الله الذي لا عوج فيه، وهو الإسلام الذي ارتضاه الله ربنا لأنبيائه وأمر به عباده»[3].

٢. وقوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۚ ﴾[4].

مرارا، مات في العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. أنظر: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي أبو الفضل: طبقات الحفاظ. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ، (ج١، ص٥٢٠، ٥٢١).

(١) أنظر: أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس: مجموع الفتاوى. تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، مكتبة ابن تيمية، ط٢، (د – ت)، (ج١٣، ص٣٨١، ٣٨٢).

(٢) سورة الأنعام، الآية ٨٧.

(٣) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٧، ص٢٦٣).

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٢٦.

«أي هذا الذي أنت عليه يا محمد والمؤمنون دين ربك لا اعوجاج فيه»[١].

٣. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٢].

قال الطبري في تأويله: «قل لهم يا محمد: إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم هو دين الله الذي ابتعثه به، وذلك الحنيفية المسلمة فوفقني له»[٣].

٤. وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[٤].

قال الطبري: «يقول: لأجلسن لبني آدم صراطك المستقيم يعني طريقك القويم، وذلك دين الله الحق، وهو الإسلام وشرائعه»[٥].

٥. وقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾[٦].

قال الطبري: «يقول: أبصرك هدى الطريق المستوى الذي لا تضل فيه إن لزمته، وهو دين الله الذي لا اعوجاج فيه»[٧].

٦. وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴾[٨].

قال الشوكاني: «يقال: نكب عن الطريق، ينكب نكوبا: إذا عدل عنه ومال إلى غيره. والنكوب، والنكب: العدول والميل، ومنه النكباء: للريح بين ريحين، سميت بذلك لعدولها عن المهاب وعن الصراط»[٩].

ومن خلال مجموع أقوال المفسرين في الآيات التي ورد فيها لفظ الصراط المستقيم يتبين الاتفاق فيما بينهم على معنى الصراط في جميع الآيات وإن اختلفت في ذلك العبارات، فجميع التأويلات يرجع حاصلها إلى شيء واحد، هو امتثال الأمر واجتناب النهي.

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. مرجع سابق، (ج٧، ص٨٣).

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٦١.

(٣) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٨، ص١١١).

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٦.

(٥) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٨، ص١٣٤).

(٦) سورة مريم، الآية ٤٣.

(٧) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١٦، ص٩٠).

(٨) سورة المؤمنون، الآية ٧٤.

(٩) الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج٣، ص٤٩٣).

ثانياً: معنى الاستقامة على الصراط المستقيم:

لقد ورد الأمر من الله تعالى لرسوله -ﷺ- أن يستقيم على أمره كما أُمر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْٓاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1].

قال الشوكاني: «أي كما أمرك الله. فيدخل في ذلك جميع ما أمره به وجميع ما نهاه عنه؛ لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه كما أمره بفعل ما تعبده بفعله، وأمته أسوته في ذلك»[2].

ولشدة وقع هذه الآية على نفس رسول -ﷺ- قال: «شيبتني هود، والواقعة، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»[3].

وقد جاء في الصحيح: قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه غيرك. قال: "قل آمنت بالله ثم استقم"[4]، فهذا من جوامع كلمه -ﷺ-، وهو يماثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾[5]، فالتزام التوحيد والطاعة على وفق ما شرع الله تعالى من غير اعوجاج عن ذلك إلى أن يستوفي العبد أجله في حياته الدنيا هي الاستقامة المطلوبة شرعا من العباد جميعا، وهي المرادة في الآية الكريمة.

---

(1) سورة هود، الآية١١٢.

(2) الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج٢، ص٥٢٩).

(3) أخرجه الترمذي في سننه. مرجع سابق، (ج٥، ص٤٠٢، حديث رقم: ٣٢٩٧)، وأحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي في مسنده. تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، (ج١، ص١٠٢، حديث رقم: ١٠٧)، وسليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني في المعجم الكبير. تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة الزهراء، الموصل، ط٢، ١٤٠٤هـ /١٩٨٣م، = = (ج٦، ص١٤٨، حديث رقم: ٥٨٠٤)، وقال عنه الحاكم في المستدرك على الصحيحين. مرجع سابق، (ج٢، ص٥١٨، حديث رقم: ٣٧٧٧): هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(4) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي. مرجع سابق، (ج١، ص٦٥، حديث رقم: ٣٨).

(5) سورة فصلت، الآية ٣٠.

ولهذا قيل في معنى الاستقامة: بأنها «كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد. والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات...»[1].

وقد أوضح ابن تيمية بيان معنى الاستقامة على الصراط المستقيم بقوله: أن يفعل العبد فى كل وقت ما أمر به فى ذلك الوقت من علم وعمل، ولا يفعل ما نهي عنه، وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم و يعمل ما أمر به فى ذلك الوقت وما نهى عنه، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور، وكراهة جازمة لترك المحظور. فهذا العلم المفصل والإرادة المفصلة لا يتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد، بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله في قلبه من العلوم والإرادات ما يهتدي به في ذلك الصراط المستقيم.
نعم حصل له هدى مجمل بأن القرآن حق والرسول حق ودين الإسلام حق وذلك حق، ولكن هذا المجمل لا يغنيه إن لم يحصل له هدى مفصل في كل ما يأتيه ويذره من الجزئيات التي يحار فيها أكثر عقول الخلق، ويغلب الهوى والشهوات أكثر عقولهم لغلبة الشهوات والشبهات عليهم. والإنسان خلق ظلوما جهولا، فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر، فيحتاج دائما إلى علم مفصل يزول به جهله، وعدل في محبته، وبغضه، ورضاه، وغضبه، وفعله، وتركه، وإعطائه، ومنعه، وأكله، وشربه، ونومه، ويقظته. فكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافى جهله، وعدل ينافى ظلمه، فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل، وإلا كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم[2].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة –ﷺ–عن النبي ﷺ قال: " سددوا وقاربوا..."[3]، فالسداد في الأمور يعني: الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد، كالذي يرمي

---

(1) محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، (ج٢، ص١٠٥).

(2) ابن تيمية: مجموع الفتاوى. مرجع سابق، (ج١٤، ص٣٧، ٣٨).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه. (ج٥، ص٢٣٧٣، حديث رقم: ٦٠٩٨)، ومسلم في صحيحه. مرجعان سابقان، (ج٤، ص٢١٦٩، حديث رقم: ٢٨١٦).

إلى غرض فيصيبه. ولذلك أمر النبي -ﷺ- عليا -رضي الله عنه- أن يسأل الله تعالى السداد والهدى، وقال له: "اذكر بالسداد تسديدك السهم، وبالهدى هدايتك الطريق"[1].

ولما كان السداد هو الأصل الذي يجب فعله، فقد جاء أولا قبل المقاربة، ولأنه قد يحدث العجز من النفس عن السداد في بعض الأمور فليس لها أن تبتعد عنه، بل عليها المقاربة منه؛ لأن في المقاربة التصميم على قصد السداد وإصابة الغرض، فتكون المقاربة عن غير عمد. ويدل على هذا قول النبي -ﷺ-: " أيها الناس إنكم لن تعملوا، ولن تطيقوا كل ما أمرتكم، ولكن سددوا وأبشروا "[2].

والمعنى: اقصدوا التسديد والإصابة والاستقامة، فإن الناس لو سددوا في العمل كله لاستقاموا كما أُمروا.

إن الاستقامة على الصراط المستقيم تبدأ أولا باستقامة القلب على أمر الله تعالى، ومتى استقام القلب استقام اللسان واستقامت الجوارح، وقد جاء في هذا قول النبي-ﷺ-: "لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه"[3].

ولهذا «فالاستقامة: درجة بها كمال الأمور وتمامها. وبوجودها حصول الخيرات ونظامها. ومن لم يكن مستقيما في حالته ضاع سعيه وخاب جهده .

وقيل: الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر؛ لأنها الخروج عن المعهودات، ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدى الله تعالى على حقيقة الصدق»[1].

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده. مرجع سابق، (ج١، ص١٣٨، حديث رقم: ١١٦٨)، وسليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي في سننه. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٤، ص٩٠، حديث رقم: ٤٢٢٥)، وأورده الحاكم في المستدرك على الصحيحين: (ج٤، ص٢٩٨، حديث رقم: ٧٧٠٠).

(2) أخرجه أبو داود في سننه. مرجع سابق، (ج١، ص٢٨٧، حديث رقم: ١٠٩٦)، وأحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي في سننه الكبرى. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، (ج٣، ص٢٠٦، حديث رقم: ٥٥٤١)، وأورده محمد ناصر الدين الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل. المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، (ج٣، ص٧٨)، وقال عنه: بأنه لا ينزل عن رتبة الحسن.

(3) أخرجه أحمد في مسنده. مرجع سابق، (ج٣، ص١٩٨، حديث رقم: ١٣٠٧١)، وأبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي في الصمت وآداب اللسان. تحقيق: أبو إسحاق الحويني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١٤١٠،١هـ، (ج١، ص٤٨، حديث رقم: ٩)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة المختصرة. مرجع سابق، (ج٧، ص٤٢، حديث رقم: ٢٨٤١).

ثالثا: وجوب الثبات على الصراط المستقيم:

وجوب الاستقامة على الصراط المستقيم والثبات عليه أمر من الله تعالى دلت عليه الكثير من الآيات منها:

١. قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[٢].

فهذه الآية يكررها المكلف في كل ركعة من ركعات صلواته باستمرار، وفيها طلب الهداية للصراط المستقيم. ومن المعلوم أن هذا الطلب يتضمن الثبات على أمر واجب هو الصراط المستقيم الذي أمر الله عباده باتباعه وعدم مجاوزته في جميع الأحوال.

وقد قال علي، وأبي بن كعب[٣]– رضي الله عنهما– في تأويل لفظ (ٱهۡدِنَا) الوارد في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ أنها بمعنى ثبتنا، كما يقال للقائم: قم حتى أعود إليك، أي دم على ما أنت عليه. وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية بمعنى التثبيت، وبمعنى طلب مزيد الهداية؛ لأن الألطاف والهدايات من الله تعالى لا تتناهى على مذهب أهل السنة[٤].

وقال الطبري في تأويله: «إنما هو مسألة الثبات على الهدى فيما بقي من العمر»[٥].

وقيل: «﴿ ٱهۡدِنَا ﴾: دعاء بالهدى، فإن قيل: كيف يطلب المؤمنون الهدى وهو حاصل لهم ؟ فالجواب: أن ذلك طلب للثبات عليه إلى الموت أو الزيادة منه، فإن الارتقاء في المقامات لا نهاية له»[٦].

---

(١) النووي: صحيح مسلم بشرح النووي. مرجع سابق، (ج٢، ص٩).

(٢) سورة الفاتحة، الآية ٦.

(٣) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري الخزرجي أبو المنذر، ويكنى أبا الطفيل أيضا، سيد القراء، من فضلاء الصحابة اختلف في سنة موته، فقيل: سنة تسع عشرة، وقيل: سنة اثنتين وثلاثين، وقيل: غير ذلك. أنظر: ابن حجر: تقريب التهذيب. مرجع سابق، (ج١، ص٩٦).

(٤) أنظر: البغوي: معالم التنزيل. مرجع سابق، (ج١، ص٤١).

(٥) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١، ص٧٣).

(٦) الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل. مرجع سابق، (ج١، ص٣٣).

٢. قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ﴾[١].

فإن دلالة وجوب الاستقامة في الآية هي في فعل الأمر (فاستقم)، ودلالة الاستمرار عليها هو الفعل المضارع المسبوق بأداة النهي (لا تطغوا)، فجمعت الآية دلالتي الوجوب والاستمرار في آن واحد. كما يفهم-أيضا-من خطاب الأمر بالاستقامة الموجه للنبي -ﷺ- والذي يدخل فيه معه أمته: الثبات على الاستقامة والدوام عليها.

قال ابن كثير في تأويله لهذه الآية: «يأمر الله تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة»[٢].

وقال ابن عطية[٣] في بيانه لمعنى الآية: «أَمْر النبي رسول الله -ﷺ- بالاستقامة وهو عليها إنما هو أمر بالدوام والثبوت، وهذا كما تأمر إنسان بالمشي والأكل ونحوه وهو ملتبس به. والخطاب بهذه الآية للنبي -ﷺ- وأصحابه الذين تابوا من الكفر، ولسائر أمته بالمعنى»[٤].

وقيل: «والظاهر أن هذا أمر بالدوام على الاستقامة، وهي لزوم المنهج المستقيم»[٥].

٣. قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾[٦].

قال السعدي في تأويل الآية: «أي اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى بتصديق الخبر الذي أخبر به، واتباع الأمر واجتناب النهي. هذه حقيقة الاستقامة ثم

---

(١) سورة هود، الآية ١١٢.

(٢) أنظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٢، ص٤٦٢).

(٣) هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحيم بن غالب بن تمام بن عطية المحاربي الأندلسي، ولد سنة ٤٨١هـ، يروي عن أبيه، وأبي علي الغساني، وأبي عبد الله القرطبي المعروف بابن الطلاع، وغيرهم، وهو صاحب التفسير المعروف بالوجيز، وتوفي عام٥٤٦ هـ. أنظر: عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني: فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات. تحقيق: د. إحسان عباس، دار العربي الإسلامي، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، (ج٢، ص٨٦٢).

(٤) ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤١٣هـ/ = = ١٩٩٣م، (ج٣، ص٢١١).

(٥) العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د - ت)، (ج١٢، ص١٥٢).

(٦) سورة فصلت، الآية ٦.

الدوام على ذلك»[1].

وقال أبو السعود في تفسيره: «والفاء في قوله تعالى﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾لترتيب ما بعدها على ما قبلها من إحياء الوحدانية، فإن ذلك موجب لاستقامتهم إليه تعالى بالتوحيد والإخلاص في الأعمال»[2].

٤. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾[3].

قال أبو بكر –ﷺ–: «أي داموا على ذلك حتى ماتوا عليه»[4].

٥. وفي قوله تعالى:﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾[5].

قال البغوي: «أي يتبع الحق ويقيم عليه»[6].

والإقامة على الحق تعني الثبات على الصراط المستقيم، ولهذا «أمرنا الله سبحانه وتعالى باتباع صراطه المستقيم ونهانا عن إتباع السبل، فقال تعالى:﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[7]، وسبيل الله وصراطه المستقيم: هو الذي كان عليه رسول الله –ﷺ– وصحابته بدليل قوله عز وجل: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾[8]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾[9]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[10]، فمن اتبع رسول الله في قوله وفعله فهو على صراط الله المستقيم، وهو ممن يحبه الله ويغفر له ذنوبه.

ومن خالفه في قوله أو فعله، فهو مبتدع متبع لسبيل الشيطان غير داخل فيمن وعد

---

(١) السعدي: تيسير الكريم الرحمن. مرجع سابق، (ج١، ص٧٤٥).

(٢) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. مرجع سابق، (ج٨، ص٣).

(٣) سورة فصلت، الآية ٣٠.

(٤) الشنقيطي: أضواء البيان. مرجع سابق، (ج٨، ص٢٩٦).

(٥) سورة التكوير، الآية ٢٨.

(٦) البغوي: معالم التنزيل. مرجع سابق، (ج٤، ص٤٥٤).

(٧) سورة الأنعام، الآية ١٥٣.

(٨) سورة يس، الآية ١– ٤.

(٩) سورة الحج، الآية ٦٧.

(١٠) سورة الشورى، الآية ٥٢.

الله بالجنة والمغفرة والإحسان»[1].

وبهذا يتبين أن الثبات على الصراط المستقيم هو ثبات مستمر، وأن الإقامة عليه هي إقامة دائمة لا تقبل الزيغ ولا الميل ولا الاعوجاج، يدوم العبد عليها إلى أن يلقى الله تعالى، إذ ليست مرهونة بوقت دون وقت، بل هي مطلوبة من العباد جميعا على الدوام في كافة أوقات حياتهم.

رابعا: دلائل التوازن في الصراط المستقيم:

يظهر التوازن بشكل جلي في الصراط المستقيم لمماثلته للخط المستقيم، إذ من المعروف عند أهل الهندسة أن: «الخط المستقيم: هو أقصر خط يصل بين نقطتين. فالحاصل أن الخط المستقيم أقصر من جميع الخطوط المعوجة، فكأن العبد يقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ لوجوه:

الأول: أنه أقرب الخطوط وأقصرها، وأنا عاجز فلا يليق بضعفي إلا الطريق المستقيم.

الثاني: أن المستقيم واحد وما عداه معوجة، وبعضها يشبه بعضا في الاعوجاج فيشتبه الطريق علي. أما المستقيم فلا يشابهه غيره، فكأنه أبعد عن الخوف والآفات وأقرب إلى الأمان.

الثالث: الطريق المستقيم يوصل إلى المقصود، والمعوج لا يوصل إليه.

والرابع: المستقيم لا يتغير، والمعوج يتغير»[2].

فيظهر بهذه الأوصاف القياسية دلائل التوازن في الصراط المستقيم الذي جعله الله تعالى طريقا موصلا إليه.

«فوصفه بالاستقامة: يتضمن قربه؛ لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين، وكلما تعوج طال وبعد.

واستقامته: تتضمن إيصاله إلى المقصود.

ونصبه لجميع من يمر عليه: يستلزم سعته.

---

(1) محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ، (ج١، ص١٣٣).

(2) الرازي: التفسير الكبير. مرجع سابق، (ج١، ص٢٠٨).

وإضافته إلى المنعم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال: يستلزم تعينه طريقا»[1].

ومن دلائل التوازن في الصراط أنه وُصِف بالسوي، قال تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾[2].

قال الطبري في تأويل ﴿السَّوِيِّ﴾بأنه «الطريق المستقيم المعتدل الذي لا اعوجاج فيه»[3].

وقال ابن كثيرفي تفسيره:﴿الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾:«أي الطريق المستقيم»[4].

وقيل: ﴿الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ «يعني: العدل»[5].

والسوي في قوله تعالى:﴿الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ قرئ ﴿السواء﴾: بمعنى الوسط والجيد، أو المستوى[6].

فيظهر من تسمية الصراط المستقيم بالصراط السوي: أنه يتضمن معاني الاعتدال والاستواء والوسط، وكل هذه دلائل واضحة في التوازن.

ومن دلائل التوازن أيضا في الصراط المستقيم ما جاء في سورة الفاتحة من الإشارة إلى الخيرية والبينية، وذلك بتعريف:﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، وهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهذا هو طريق الخيار. ثم يأتي التحديد لطريق الصراط المستقيم، بقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[7]، حيث جاء وسطا بينهما، وفي هذا توازن واضح.

---

(1) أبو عبد الله الزرعي: مدارج السالكين. مرجع سابق، (ج١، ص١٠، ١١).

(2) سورة طه، الآية ١٣٥.

(3) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١٦، ص٢٣٨).

(4) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٣، ص١٧٣).

(5) نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي: تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم. تحقيق: د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٢، ص٤١٨).

(6) الزمخشري: الكشاف. بتصرف، مرجع سابق، (ج٣، ص١٠٠).

(7) سورة الفاتحة، الآية ٧.

وفي سورة البقرة يرد التعقيب المباشر للصراط المستقيم بلفظ الوسط، قال الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1]، ثم جاءت الآية التالية مباشرة فذكرت الوسط:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[2]، ولفظ الوسط – كما هو معروف– هو أحد معاني التوازن ومصطلحاته.

بل إذا كان «الرب سبحانه على صراط مستقيم، وذلك بمنزلة قوله:﴿ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[3]، فإن الاستقامة والاعتدال متلازمان. فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيما، ومن كان قوله وعمله مستقيما كان قائما بالقسط. ولهذا أمرنا الله سبحانه أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وصراطهم هو العدل والميزان ليقوم الناس بالقسط.

والصراط المستقيم: هو العمل بطاعته وترك معاصيه، فالمعاصي كلها ظلم مناقض للعدل مخالف للقيام بالقسط والعدل»[4].

ويزداد الأمر وضوحا بحديث علي–ﷺ– الذي مر سابقا " سددوا وقاربوا "[5]، فالسداد يعني: الإصابة المباشرة للشئ من دون أن يحدث أي خطأ أو انحراف للشئ المسدد به، فهو يسير نحو الهدف بخط مستقيم حتى يصيبه، كما يتجه السهم نحو الرمية حتى يصيبها.

وذكر الطبري في تفسيره: «أن رجلا قال لابن مسعود -ﷺ-: ما الصراط المستقيم ؟ قال: تركنا محمد –ﷺ– في أدناه وطرفه في الجنة، وعن يمينه جَوَاد، وعن يساره جواد، وثم رجال يدعون مَنْ مر بهم، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ بن مسعود: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا

---

(1) سورة البقرة، الآية ١٤٢.

(2) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

(3) سورة آل عمران، الآية ١٨.

(4) ابن تيمية: مجموع الفتاوى. مرجع سابق، (ج١٤، ص١٧٩).

(5) أنظر تخريجه: (ص٦٣).

صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا ﴾ »[1]، فظهر من كلام ابن مسعود أن الصراط وسط بين طرق تكتنفه من جهتي اليمين واليسار، وهو بهذا الوصف يمثل التوازن الدقيق بينها.

«وقوله: ﴿مُسْتَقِيمًا ﴾، نصب على الحال من صراط، وهذه يقال لها: الحال المؤكدة؛ لأن صراط الله لا يكون إلا مستقيما، فلم يؤت بها لتفرق بين حالتين، إذ لا يتغير صراط الله عن الاستقامة أبدا. وليست هذه الحال كالحال في قولك: هذا زيد راكبا؛ لأن زيد قد يخلو من الركوب في وقت آخر إلى ضد الركوب، وصراط الله لا يخلو من الاستقامة أبدا»[2].

ومن خلال ما سبق عرضه يتضح الآتي:

١- أن الصراط المستقيم يمثل ذروة التوازن، وأبلغ مسمياته.

٢- أن الخيرية والأفضلية ظاهرتان فيه بشكل واضح.

٣- أن الخروج أو الابتعاد عن منهج الله تعالى هو خروج عن الاستقامة وانحراف عن خط التوازن، وأن الالتزام بتوجيهات الشرع وامتثالها يمثل السير على خط التوازن الشرعي.

٤- أن الاستقامة لا تتغير عن صراط الله مطلقاً. ولهذا كان الشرع هو الميزان الذي يجب أن توزن به كل الأفعال والأقوال والتصرفات لجميع المكلفين في كل وقت وزمان، وفي كل بقعة ومكان، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾[4] .

وبهذا تكون دلائل التوازن في الصراط المستقيم قد وضحت وتجلت معانيها.

---

(١) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٨، ص٨٨، ٨٩).

(٢) مكي بن أبي طالب القيسي أبو محمد: مشكل إعراب القرآن. تحقيق د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ، (ج١، ص٢٧٠).

(٣) سورة الشورى، الآية ١٧.

(٤) سورة الحديد، الآية ٢٥.

المبحث الثاني
تحقيق الوسطية

لقد ورد لفظ **(الوسط)** في القرآن الكريم في مواضعه المختلفة والمتعددة في موضع المدح والثناء، وقد ورد بلفظ **(وسطا)**، و**(الوسطى)**، و**(أوسط)**، و**(أوسطهم)**، ولفظ **(فوسطن)**، وسيستعرض الباحث أوضح أقوال المفسرين في استخلاص مدلولات هذه الألفاظ، وذلك للوقوف على أظهر معانيها ودلائلها، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: معنى الوسط:

يمكن التعرف على المعنى المراد بالوسط من خلال المرور على تفسير مادة (وسط) التي تضمنتها الآيات القرآنية، وسيتم تناول تفسير هذه الآيات على النحو الآتي:

١. قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[١].

فقد ورد في تفسير (وَسَطًا) ما رُوي عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ[٢]-ﷺ- قال: قال رسول اللَّهِ -ﷺ-: " يُدْعَى نُوحٌ يوم الْقِيَامَةِ فيقول: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يا رَبِّ، فيقول: هل بَلَّغْتَ ؟ فيقول: نعم، فَيُقَالُ لأُمَّتِهِ: هل بَلَّغَكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ: ما أَتَانَا من نَذِيرٍ، فيقول: من يَشْهَدُ لك ؟ فيقول: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ فيشهدون أَنَّهُ قد بَلَّغَ، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾، فَذَلِكَ قَوْلُهُ - جَلَّ ذِكْرُهُ -:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ وَالْوَسَطُ: الْعَدْلُ "[٣].

وقد أورد الطبري تفسير هذه الآية منسوباً إلى بعض الصحابة والتابعين، كأبي هريرة، وابن عباس، وأبي سعيد، ومجاهد، وغيرهم، حيث فسروها: عدولاً.

وقد بين أن الوسط في كلام العرب يأتي بمعنى الخيار، ثم وضح رأيه في بيان لفظ الوسط، فقال: وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء الذي هو بين الطرفين، مثل وسط الدار. وأرى أن الله – تعالى ذكره – إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين.

ثم بين الجمع بين المعنيين بقوله: وأما التأويل، فإنه جاء بأن الوسط العدل، وذلك معنى الخيار؛ لأن الخيار من الناس عدولهم[٤].

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

(٢) هو أبو سعيد الخدري سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي المدني، كان من علماء الصحابة، وممن شهد بيعة الشجرة، وأبوه من شهداء أحد، روى حديثا كثيرا، حدث عنه ابن عمر وجابر بن عبد الله وغيرهما من الصحابة، ويُروى أنه كان من أهل الصفة، عاش ستا وثمانين سنة، مات في أول سنة أربع وسبعين. أنظر: الذهبي: تذكرة الحفاظ. مرجع سابق، (ج١، ص٤٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٤، ص١٦٣٢، حديث رقم: ٤٢١٧).

(٤) أنظر: الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٢، ص٦، ٧).

وقال الشوكاني: «والوسط: الخيار أو العدل، والآية محتملة للأمرين»[1].

ومن خلال ما سبق اتضح أن معنى الوسط يطلق على ثلاثة أمور هي: العدل، والخيار، والجزء بين الطرفين.

٢. قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾[2].

لقد تعددت أقوال المفسرين في تحديد المراد بالصلاة الوسطى، وقد أورد ابن الجوزي توجيه أقوال العلماء في المراد بالصلاة الوسطى، حيث قال: وفي المراد بالوسطى ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها أوسط الصلوات محلا.

والثاني: أوسطها مقدارا.

والثالث: أفضلها.

فإن قلنا: إن الوسطى بمعنى الفضلى، جاز أن يدعي هذا كل ذي مذهب فيها، فوسط الشيء خيره وأعدله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾.

وإن قلنا: إنها أوسطها مقدارا فهي المغرب؛ لأنها بين أقل الفروض وأكثرها.

وإن قلنا: إنها أوسطها محلا، فللقائلين بأنها العصر أن يقولوا: قبلها صلاتان في النهار، وبعدها صلاتان في الليل.

ومن قال: هي الفجر، قال: هي وسط بين الليل والنهار.

ومن قال: هي الظهر، قال: هي وسط النهار.

وأما من قال: هي المغرب، فاحتج بأن أول صلاة فرضت الظهر، فصارت المغرب وسطى. ومن قال: هي العشاء، فانه قال: هي بين صلاتين لا تقصران[3].

فهذا خلاصة ما قاله علماء التفسير في بيانهم للمراد بالصلاة الوسطى، وكل ذلك راجع إلى تحديد المراد بمعنى الوسطى.

٣. قوله تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾[4].

---

(1) الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج١، ص١٥٠).

(2) سورة البقرة، الآية ٢٣٨.

(3) أنظر: ابن الجوزي: زاد المسير. مرجع سابق، (ج١، ص٢٨٣، ٢٨٤).

(4) سورة المائدة، الآية ٨٩.

وفي المراد بتأويل قوله: ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾، فقد تعددت أقوال المفسرين في ذالك، فقال الطبري: أي أعدله.

وقال بعضهم: معناه من أوسط ما يطعم من أجناس الطعام الذي يقتاته أهل بلد المكفر أهاليهم. ومنه قول ابن عمر: من أوسط ما يطعم أهله الخبز والتمر، والخبز والسمن، والخبز والزيت، ومن أفضل ما يطعمهم الخبز واللحم.

وقال آخرون: من أوسط ما يطعم المكفر أهله، فإن كان ممن يشبع أهله أشبع المساكين العشرة، وإن كان ممن لا يشبعهم لعجزه عن ذلك أطعم المساكين على قدر ما يفعل من ذلك بأهله في عسره ويسره.

ثم قال الطبري مبينا الراجح منها: وأولى الأقوال عندنا قول من قال: من أوسط ما تطعمون أهليكم في القلة والكثرة[١].

وقال الشوكاني: «المراد بالوسط هنا: المتوسط بين طرفي الإسراف والتقتير، وليس المراد به الأعلى كما في غير هذا الموضع. أي أطعموهم من المتوسط مما تعتادون إطعام أهليكم منه، ولا يجب عليكم أن تطعموهم من أعلاه، ولا يجوز لكم أن تطعموهم من أدناه»[٢].

وبهذا يتبين أن أوسط تأتي بمعنى: أعدل، وبمعنى التوسط بين الجيد والرديء، وبمعنى التوسط في المقدار، أي بين القلة والكثرة.

٤. وقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾[٣].

وفي المراد بـ﴿ أَوْسَطُهُمْ ﴾، قال القرطبي: «أي أمثلهم، وأعدلهم، وأعقلهم»[٤].

وقال أبو السعود: «أوسطهم رأياً، أو سناً»[٥].

٥. وقوله تعالى: ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ ﴾[٦].

---

(١) أنظر: الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٧، ص١٦، ١٧، ٢١، ٢٢).

(٢) الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج٢، ص٧١).

(٣) سورة القلم، الآية ٢٨.

(٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. مرجع سابق، (ج١٨، ص٢٤٤).

(٥) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. مرجع سابق، (ج٩، ص١٦).

(٦) سورة العاديات، الآية ٥.

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: فوسطن بركبانهن جمع القوم. يقال: وسطت القوم بالتخفيف، ووسطته بالتشديد، وتوسطته بمعنى واحد»[١].

وقال الزمخشري: «فَوَسَطْنَ بذلك الوقت أو بالنقع. أي وسطن النقع الجمع أو فوسطن ملتبسات به جَمْعاً من جموع الأعداء. ووسطه بمعنى توسطه»[٢].

ويظهر مما سبق أن لفظ (وسطن) يدل على التوسط المكاني والزماني.

ولمزيد من البيان فسيستعرض الباحث طائفة من الأحاديث النبوية المبينة لمعنى الوسط لكون السنة شارحة للقرآن الكريم ومبينة له، وهي كما يلي:

أ- عن عبد الله بن مسعود -ﷺ- قال: " خَطَّ النبي -ﷺ- خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا في الْوَسَطِ خَارِجًا منه، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إلى هذا الذي في الْوَسَطِ من جَانِبِهِ الذي في الْوَسَطِ، وقال: هذا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ أو قد أَحَاطَ بِهِ، وَهَذَا الذي هو خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هذا نَهَشَهُ هذا، وإن أَخْطَأَهُ هذا نَهَشَهُ هذا "[٣].

فالوسط هنا: طرف بين عدة أطراف ومسافة الأطراف إليه متساوية.

ب- وعن ابن عَبَّاسٍ-ﷺ- قال: قال رسول اللَّهِ -ﷺ-: " إذا وُضِعَ الطَّعَامُ فَلاَ تَأْكُلُوا من وَسَطِهِ، فإن الْبَرَكَةَ تَنْزِلُ وَسَطَهُ، وَكُلُوا من حافيته أو حَافَتَيْهَا "[٤].

والوسط في هذا الحديث كالمنتصف من الشئ المستدير، فالمسافات إليه متساوية من جميع الأطراف المحيطة به.

---

(١) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٣٠، ص٢٧٦).

(٢) أنظر: الزمخشري: الكشاف. مرجع سابق، (ج٤، ص٧٩٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٥، ص٢٣٥٩، حديث رقم: ٦٠٥٤).

(٤) أخرجه عبد الله بن الزبير أبو بكر الحميدي في المسند. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية – مكتبة المتنبي، بيروت– القاهرة، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج١، ص٢٤٣، حديث رقم: ٥٢٩)، وأحمد في مسنده. (ج١، ص٣٦٤، حديث رقم : ٣٤٣٨)، وابن ماجه في سننه. مرجعان سابقان (ج٢، ص١٠٩٠، حديث رقم: ٣٢٧٧)، وصححه الألباني في تحقيقه لكتاب مشكاة المصابيح، لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي. المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، (ج٢، ص٤٥٦، حديث رقم: ٤٢١١)، [٥٣].

ج- وعن أبي هُرَيْرَةَ -ﷺ- قال: قال رسول اللَّهِ - ﷺ -: "وَسِّطُوا الإِمَامَ، وَسُدُّوا الْخَلَلَ "[1]، ومعنى: «وسطوا الإمام: أي اجعلوا إمامكم متوسطا بأن تقفوا في الصفوف خلفه وعن يمينه وعن شماله»[2].

فالوسط هنا: يعني منتصف الشئ بين طرفين ومسافة كل طرف من الطرفين إلى المنتصف متساوية.

د- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -ﷺ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ -ﷺ-: " لَيْسَ لِلنِّسَاءِ وَسَطُ الطَّرِيقِ "[3].

والوسط هنا: هو الوسط المكاني، وهو ما كان بين الشيئين؛ لأن المشروع في حق المرأة أن تكون بجانب الطريق حتى تتحرز من ملامستها للرجال والاحتكاك بهم؛ لأن الزحام يكثر في وسط الطريق ويقل في جانبيه.

هـ- عن أبي هُرَيْرَةَ -ﷺ- عن النبي -ﷺ- قال: "... فإذا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فإنه أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرحمن، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ "[4].

فقوله: " أوسط الجنة " المراد بالأوسط هنا: الأعدل والأفضل.

وبهذا العرض لما قاله المفسرون، وبما تضمنته مجموعة الأحاديث النبوية السابقة في المراد بمعنى الوسط، فإن هذا اللفظ له دلالات متعددة من أهمها:

١- الدلالة على معنى الخيار، والأفضلية، والعدل.

٢- الدلالة على التوسط في المكان أو الزمان.

٣- الدلالة على التوسط في المحل، أو المقدار، أو العدد، أو النوع.

٤- الدلالة على الجزء بين الطرفين أو الأطراف حساً ومعنى.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: (ج١، ص١٨٢، حديث رقم: ٦٨١)، والبيهقي في السنن الكبرى. مرجعان سابقان، (ج٣، ص١٠٤، حديث رقم: ٤٩٨٤)، والإمام النووي في رياض الصالحين. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د - ت)، (ج١، ص٤١١، حديث رقم: ١١٠٣)، وقال عنه: ضعيف.

(٢) محمد شمس الحق العظيم آبادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود. دارالكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، (ج٢، ص٢٦٥).

(٣) أخرجه محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، (ج١٢، ص٤١٦، حديث رقم: ٥٦٠١)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة المختصرة، مرجع سابق، (ج٢، ص٥١١، حديث رقم: ٨٥٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٦، ص٢٧٠٠، حديث رقم: ٦٩٨٧).

٥- قد يأتي للدلالة لما بين الجيد والردئ.

٦- قد يأتي للدلالة على المنتصف في الشيء المستدير.

وكل هذه الدلالات واضحة في معنى التوازن سواء كان ذلك حسيا أو معنويا.

ثانياً: التوسط المقصود شرعاً:

لقد سبق معنى التوسط وعرفت دلالاته ومعانيه، وتبين أن التوسط في الأشياء المحسوسة يعني استواء المسافات من الأطراف إلى منتصفها، وهذا توازن دقيق فيها، ولا خلاف في دلالة هذا الأمر على معنى التوازن؛ لأن صورته حسية وظاهرة للعيان، وبالتالي: فالمسافات، والأحجام، والمساحات، والأعداد، والأوزان، والمقادير، وكل الأشياء الخاضعة للقياس، فالتوسط فيها مقيس إما بالحس أو بالآلة المناسبة لذلك.

لكن عند النظر إلى التوسط في الأشياء المعنوية، فليس كل شئ ورد بين شيئين أو أشياء يُطلق عليه لفظ (الوسط) كمدلول شرعي يُقصد بإطلاقه التوازن التشريعي وإن كان يحمل مدلول البينية، وإن كان في ظاهر وضعه –أيضاً– الدلالة على معنى التوسط.

فالشئ المذموم – مثلاً– إذا ورد بين شيئين فاضلين لا يدل على التوازن مع إمكان الإتيان بأحدهما، وإن دل على معنى التوسط من حيث الوضع. ولا يدل على التوازن كذلك الإتيان بالشئ المذموم إذا كان بين طرفين مذمومين إذا جئ به على سبيل الاختيار؛ لأن الأصل هو الابتعاد عن الأشياء المذمومة، وإن دل على التوسط من حيث الوضع، وبالتالي فلابد أن يتوفر في التوسط دلالتي الخيرية والبينية حتى يطلق عليه توسط أو توازن تشريعي. أما الوقوف على الأصل اللغوي فقط للدلالة على معنى التوسط المقصود شرعاً دون الالتزام بالمدلول الشرعي لمعناه فليس بمفهوم صحيح للدلالة عليه، ذلك لأن الخيرية في التوسط التشريعي لازمة له ولا يمكن أن تنفك عنه، وهذا مفهوم من الآيات والأحاديث السابقة.

ومعلوم أن الشرع الحكيم عندما أرشد إلى التوسط في الأمور إنما قصد التوسط الذي يبتعد بصاحبه عن شرَّي الإفراط والتفريط؛ لأن الخير يكمن بين طرفي الشر، ولذلك فعند التأمل في قوله تعالى: ﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰٓ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴾[1]، يتبين أن التوسط الذي سلكه المنافقون بالتردد بين طرفي الإيمان والكفر مذموم رغم وضوح صورة البينية التي هم فيها، وقد قال ابن الجوزي في تأويله للآية: «المذبذب المتردد بين أمرين. وأصل التذبذب التحرك والاضطراب، وهذه صفة المنافق؛ لأنه محير في دينه لا يرجع إلى اعتقاد صحيح، قال قتادة[2]: ليسوا بالمشركين المصرحين بالشرك ولا بالمؤمنين المخلصين.

---

(1) سورة النساء، الآية ١٤٣.

(2) هو قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي أبو الخطاب البصري الأكمه، ولد سنة ستين، أحد الأعلام، كان يتهم بالقدر، روى عن أنس وعبد الله بن سرجس وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب والحسن وابن سيرين وخلق، وروى عنه أبو حنيفة وأيوب وشعبة ومسعر والأوزاعي وخلق، مات سنة سبع عشرة ومائة. أنظر: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: طبقات الحفاظ. مرجع سابق، (ج١، ص٥٤، ٥٥).

قيل: ومعنى﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: بين الإسلام والكفر، لم يظهروا الكفر فيكونوا إلى الكفار، ولم يصدقوا الإيمان فيكونوا إلى المؤمنين»[1].

وروى ابن عمر[2]- رضي الله عنهما- عن النبي -ﷺ- أنه قال: " مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بين الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إلى هذه مَرَّةً وَإِلَى هذه مَرَّةً "[3].

وقال السعدي في تفسيره:﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، «أي مترددين بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين، فلا من المؤمنين ظاهرا وباطنا، ولا من الكافرين ظاهرا وباطنا. أعطوا باطنهم للكافرين وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر. ولهذا قال:﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾، أي لن تجد طريقا لهدايته ولا وسيلة لترك غوايته لأنه انغلق عنه باب الرحمة وصار بدله كل نقمة»[4].

فهنا يتبين أن الإسلام هو الطرف المحمود، والكفر هو الطرف المذموم، والنفاق وسط بينهما وهو مذموم كما سبق بنص القرآن، وبالتالي فلا يطلق على النفاق أنه وسط وإن كان يتضمن معنى البينية، وذلك لخلوه من معنى الخيرية. ويؤيد هذا الأمر البينية الواردة في قول الله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[5]، قال الزمخشري: «ومعنى اتخاذهم بين ذلك سبيلا: أن يتخذوا دينا وسطا بين الإيمان والكفر، كقوله:﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[6]، أي طريقا وسطا في القراءة، وهو ما بين الجهر والمخافتة. وقد أخطأوا؛ فإنه لا واسطة بين

---

(1) ابن الجوزي: زاد المسير. مرجع سابق، (ج٢، ص٢٣٢).

(2) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن فرط بن رزاح بن عدي بن كعب العدوي كنيته أبو عبد الرحمن، ولد قبل الوحي بسنة، اعتزل في الفتن عن الناس، ومات سنة ثلاث وسبعين بمكة، وهو ابن سبع وثمانين، ودفن بفخ، وقيل: مات سنة أربع وسبعين وهو ابن أربع وثمانين. أنظر: ابن منجويه: رجال مسلم. مرجع سابق، (ج١، ص٣٣٦، ٣٣٧).

(3) أخرجه مسلم في صحيحه. مرجع سابق، (ج٤، ص٢١٤٦، حديث رقم: ٢٧٨٤).

(4) السعدي: تيسير الكريم الرحمن. مرجع سابق، (ج١، ص٢١١).

(5) سورة النساء، الآية ١٥٠.

(6) سورة الإسراء، الآية ١١٠.

الكفر والإيمان، ولذلك قال:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾، أي هم الكاملون في الكفر، و﴿حقا﴾: تأكيد لمضمون الجملة»[1].

وقال الشوكاني:﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ «أي يتخذوا بين الإيمان والكفر دينا متوسطا بينهما، فالإشارة بقوله:﴿ذلك﴾ إلى قوله: ﴿نُؤْمِنُ ﴾،﴿ وَنَكْفُرُ ﴾»[2].

و﴿ذلك﴾ في قوله تعالى: ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ يقع بمعنى المفرد والتثنية والجمع، وهو هنا بمعنى التثنية، أي بينهما[3].

فالتوسط هنا توسط مذموم كما هو الملاحظ لانعدام الخيرية فيه. وبالمقياس نفسه ترى وسطية الشرع بارزة في الصورة المماثلة إذا لازمتها الخيرية، وهي عندما يكون هناك إظهارٌ لخلافِ ما يُبطنه الشخص إذا كان ذلك لقصد الخير. وليس هذا على إطلاقه، بل هو مقيد في أمور معينة كالإصلاح بين الناس إذا تيقن الشخص المصلح أن ما يقوم به من كذب لإزالة الخصومة سيكلل بالنجاح. ويؤيد هذا حديث النبي-ﷺ-: "ليس الْكَذَّابُ الذي يُصْلِحُ بين الناس فَيَنْمِي خَيْرًا أو يقول خَيْرًا"[4]، ومعلوم أن الكذب من أبرز صفات المنافقين، لكن اقتران الخيرية به هنا صرفت صفة النفاق عمن فعله، ولم يعد فاعله لغرض الإصلاح والخير منافقا مترددا بين الإيمان والكفر كالذي نصت عليه الآيتين السابقتين؛ لأن ذلك فاقد للإيمان والخيرية أصلاً، والمؤمن قد يأتي بهذه الصورة المناقضة للواقع ولما يُبطنه في نفسه بدافع الإيمان، ومن أجل الصلح بين الناس الذي يمثل الخيرية. ولهذا لم يلحقه الشرع الحكيم بالمنافقين.

---

(1) الزمخشري: الكشاف. مرجع سابق، (ج١، ص٦١٧).

(2) الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج١، ص٥٣٢).

(3) أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري: التبيان في إعراب القرآن. تحقيق علي محمد البجاوي، دار النشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج١، ص٤٠٢).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٢، ص٩٥٨، حديث رقم: ٢٥٤٦).

ومثل ذلك الاضطرار، فإن العلماء قد «اتفقوا على جواز الكذب عند الاضطرار، كما لو قصد ظالم قتل رجل وهو مختف عنده، فله أن ينفي كونه عنده، ويحلف على ذلك ولا يأثم»[1].

وبهذا يكون قد اتضح التوسط المشروع والذي تكون صورته فيما يرد بين طرف ممدوح وآخر مذموم والخيرية ملازمة له. وهذا نوع من أنواع التوازن التشريعي الذي يدل عليه التوسط في الشرع الحنيف.

والنوع الآخر، وهو المحمود على الإطلاق. ويكون ذلك فيما له طرفان هما: إفراط وتفريط، كالقوام بين الإسراف والتقتير، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾[2].

فالقوام: هو التوسط المتضمن لمعنى الخيرية، والإسراف والتقتير: هما الطرفان المذمومان. وهناك دلالات أخرى لمعنى الوسطية وهي: الخيار، والأفضل، والأعدل. وهذه المعاني يتضمنها الشرع جميعاً، ويدخل فيها النوعان السابقان دخولاً أولياً؛ ذلك لأن الشرع بأكمله يهدي للتي هي أقوم، وينفر ويشنع من الاقتراب من الأطراف المذمومة ناهيك عن الوقوع فيها، ولذلك ورد النهي في الحديث عن مقاربة الشبهات.

فقد جاء عن النبي -ﷺ- قوله: "إِنَّ الْحَلالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ من الناس، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبُهَاتِ وَقَعَ في الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فيه، ألا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ..."[3].

فالشبهات: هي منطقة التماس مع الأطراف المذمومة، والاقتراب منها قد يوقع في انتهاك هذه الأطراف، وعدم القرب منها يجعل الشخص في المكان الأعدل.

والخلاصة في التوسط الشرعي أنه قسمان:

القسم الأول: وهو الذي تجتمع فيه دلالتي البينية والخيرية، وهذا له صورتان:

الصورة الأولى: ماله طرفان مذمومان، وهو وسط محمود بينهما.

---

(1) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري. مرجع سابق، (ج٥، ص٣٠٠).

(2) سورة الفرقان، الآية ٦٧.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه. مرجع سابق، (ج٣، ص١٢١٩، حديث رقم: ١٥٩٩).

الصورة الثانية: ما كان بين طرف محمود وآخر مذموم.
القسم الثاني: ما يتضمن دلالة الخيرية فقط، لكن أصل وضعه يتضمن معنى العدل الذي يعطي معنى الوسطية في كونه لا يميل إلى طرف على حساب طرف آخر، وهذا القسم يدخل فيه سائر المفردات الشرعية، ويدخل فيه القسم الأول دخولاً أولياً لتضمنه المعنى صراحةً، وبهذا المعنى يطلق على الشرع بأكمله أنه (وسط).

ثالثا: تحقيق الوسطية مقصد شرعي:

إن الفضل الذي شرف الله به هذه الأمة هو أن جعلها الأمة الوسط العدل الخيار، قال تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1]، «فَاقْتَضَى ذلك أن يَكُونَ نَبِيُّهُمْ -ﷺ- أوسط الأنبياء- صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلامُهُ عليهم – وَخِيَارَهُمْ، وَكِتَابُهُمْ كَذَلِكَ، وَدِينُهُمْ كَذَلِكَ، وَقِبْلَتُهُمْ التي يَسْتَقْبِلُونَهَا كَذَلِكَ، فَظَهَرَتْ الْمُنَاسَبَةُ شَرْعًا وَقَدَرًا في أَحْكَامِهِ تَعَالَى الأمرية وَالْقَدَرِيَّةِ»[2].

وعند التأمل في معنى الوسطية ومكانتها في القرآن الكريم يتبين أن القرآن يوجه المكلف إلى أن يحقق الوسطية في كل شؤون حياته، فيضبط بها جميع تصرفاته، بل يظهر بجلاء أن الله تعالى يثني على أهل التوسط في كتابه العزيز، فيقول تعالى ذكره: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[3].

وبالمقابل يذم الخارجين عن هذا السلوك وينهاهم عن مجاوزة التوسط والاقتصاد الذي أمر به، فيقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[4]، ويقول سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[5].

---

(1) سورة البقرة، الآية ١٤٣.
(2) أبو عبد الله الزرعي: إعلام الموقعين عن رب العالمين. مرجع سابق، (ج٤، ص١٦٤).
(3) سورة الفرقان، الآية ٦٧.
(4) سورة الإسراء، الآية ٢٩.
(5) سورة الأعراف، الآية ٣١.

وبهذا يظهر أن «الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال، بل هو تكليف جار على موازنة تقتضى في جميع المكلفين غاية الاعتدال، كتكاليف الصلاة، والصيام، والحج، والجهاد، والزكاة، وغير ذلك»[1].

إن التحقق بالتوسط الشرعي في الحياة يعني تحقيق ما كان عليه الرسول-ﷺ- وأصحابه – رضوان الله عليهم جميعا –، فقد خوطبوا بهذه الأحكام من قبلنا ومارسوها عمليا وتحققوا بها في مختلف حياتهم، ولذلك فإن قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ يتناولهم قبل غيرهم؛ لأنه نزل مخاطبا لهم، فهم المثال لمن بعدهم من الأمة، والرسول -ﷺ- بين أظهرهم خير مثال وخير معلم لهم، يقيم اعوجاجهم، ويصحح أخطاءهم، ويضعهم على أعدل طريق وأقسط منهج.

«وقد ظهر بهذا أن التعمق والتنطع والتشديد الذي نهى عنه رسول الله -ﷺ- هو المخالف لهديه وهدي أصحابه وما كانوا عليه. وإن موافقته فيما فعله هو وخلفاؤه من بعده هو محض المتابعة وإن أباها وجهلها من جهلها.

فالتعمق والتنطع مخالفة ما جاء به وتجاوزه والغلو فيه. ومقابلته: إضاعته والتفريط فيه والتقصير عنه، وهما خطأ وضلالة وانحراف عن الصراط المستقيم والمنهج القويم. ودين الله تعالى بين الغالي فيه والجافي عنه»[2].

إن مفردات الدين الحنيف قد شرعت بدقة متناهية لتكون بعيدة عن طرفي الإفراط والتفريط كي تحقق لعموم الناس صلاح حياتهم وصيانتها من الفساد، وبالإمكان لأي أحد أن يتبين عظمة هذا التقدير في الشرع الحنيف بصورة جلية، وذلك عند النظر والتأمل في التشريعات القاصرة التي يضعها البشر، فرغم ما يبذلون من جهد في

---

(1) إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي: الموافقات في أصول الفقه. تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٢، ص١٦٣).

(2) أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي : الصلاة وحكم تاركها وسياق صلاة النبي من حين كان يكبر إلى أن يفرغ منها. تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار النشر: الجفان والجابي، دار ابن حزم، قبرص – بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، (ج١، ص٢٢٥).

صياغة القوانين والتشريعات التي يريدون من خلالها ضبط شؤونهم الحياتية، إلا أنه سرعان ما يظهر فيها القصور والنقص، والجنوح في مفرداتها إلى طرفي نقيض، وتغليب مصلحة فئة على فئة أخرى بما يكرس الظلم والجور، وهذا بخلاف دين رب العالمين الذي تخلو مفرداته من كل نقص وقصور. فهو وسط بين طرفين مذمومين، يبتعد عن كل طرف منهما بالقدر الذي يدفع السوء كله من كليهما، ويحقق أقصى درجات الخير والصلاح الذي يكمن بينهما.

«ومثال طلب الآدمي البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط: مثال نملة ألقيت في وسط حلقة محمية على النار مطروحة على الأرض، فإن النملة تهرب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها لا تقدر على الخروج منها.

فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذي هو الوسط، فلو ماتت ماتت على الوسط؛ لأن الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التي في الحلقة المحيطة»[1].

وبالجملة فأحكام الشرع جارية على ذلك، «فإذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلا إلى جهة طرف من الأطراف فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر.

فطرف التشديد– وعامة ما يكون في التخويف والترهيب والزجر– يؤتي به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين.

وطرف التخفيف – وعامة ما يكون في الترجية والترغيب والترخيص– يؤتي به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك رأيت التوسط لائحا، ومسلك الاعتدال واضحا. وهو الأصل الذي يرجع إليه، والمعقل الذي يلجأ إليه. وعلى هذا إذا رأيت في النقل من المعتبرين في الدين من مال عن التوسط، فاعلم أن ذلك مراعاة منه لطرف واقع أو متوقع في الجهة الأخرى، وعليه يجري

النظر في الورع والزهد وأشباههما وما قابلها»[2].

---

(1) محمد بن محمد الغزالي أبو حامد: إحياء علوم الدين. دار المعرفة، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٣، ص٩٦).

(2) إبراهيم بن موسى اللخمي: الموافقات. مرجع سابق، (ج٢، ص١٦٧، ١٦٨).

فمراعاة التوسط في الأمور مسألة دقيقة تحتاج إلى كثير من النظر ورسوخ في العلم، ليتسنى تقدير التوسط المطلوب شرعا، وخصوصا في دقائق الأمور.

ومن المعلوم أن «التوسط يعرف بالشرع، وقد يعرف بالعوائد، وما يشهد به معظم العقلاء، كما في الإسراف والإقتار في النفقات»[١].

وبهذا يكون قد أوضح الباحث تطرق الشرع الحنيف إلى تحقيق مقصد الوسطية.

رابعا: دلالات التوازن في الوسطية:

كل الآيات والأحاديث السابقة تحمل الدلالة على التوازن، وذلك في كون التوسط يقع في منتصف الأشياء ومسافات الأطراف إليه متساوية.

ومن المعلوم أن«أبعد الجهات والمقادير والمعاني من كل طرفين وسطهما، وهو غاية البعد منهما. فإذا كان في الوسط فقد بعد عن الأطراف المذمومة بقدر الإمكان»[٢].

و–أيضاً– من دلالات التوازن في التوسط تسميته بالعدل، و«إنما سمي العدل وسطاً؛ لأنه لا يميل إلى أحد الخصمين. والعدل: هو المعتدل الذي لا يميل إلى أحد الطرفين»[٣].

وكذلك السواء يأتي بمعنى الوسط، قال تعالى:﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[٤]، وقال تعالى:﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[٥]، «وسواء الجحيم: وسطه، قال ابن عباس، والحسن، والناس: وسمي سواء لاستواء المسافة منه إلى الجوانب»[٦].

﴿ سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[٧]– أيضا– وسطه. ومن المعلوم أن الخط المستقيم متمكن في الأوساط، وهذا ما يزيد من دلالات التوازن في معنى الوسطية.

---

(١) المرجع نفسه. (ج٢، ص١٦٨).

(٢) ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق، (ج٧، ص٤٣٠).

(٣) الرازي: التفسير الكبير. مرجع سابق، (ج٤، ص٨٩).

(٤) سورة الدخان، الآية ٤٧.

(٥) سورة الصافات، الآية ٥٥.

(٦) ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. مرجع سابق، (ج٤، ص٤٧٤).

(٧) سورة المائدة، الآية ٦٠.

وتأمل في قوله تعالى: ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾[1]، تجد أن الشنقيطي بين دلالات التوازن الذي تضمنها هذا اللفظ الدال على معنى الوسطية، حيث قال: «وأصح الأقوال في قوله:﴿ سُوًى ﴾ على قراءة الكسر والضم: أنه مكان وسط تستوي أطراف البلد فيه لتوسّطها بينها، فلم يكن أقرب للشرق من الغرب، ولا الجنوب من الشمال، وهذا هو معنى قول المفسرين:﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾، أي نصفاً وعدلاً ليتمكن جميع الناس أن يحضروا، وقوله: ﴿سُوًى﴾ أصله من الاستواء؛ لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين لا تفاوت فيها، بل هي مستوية»[2].

ومن دلالات التوازن –أيضا– إطلاق التوسط على القصد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾[3]، قال الشوكاني: «أي توسط فيه، والقصد: ما بين الإسراع والبطء، يقال: قصد فلان في مشيته: إذا مشى مستويا لا يدب دبيب المتماوتين ولا يثب وثوب الشياطين»[4]، ومنه قوله تعالى: «﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾[5]، أي سفرا متوسطا بين القرب والبعد. وكل متوسط بين الإفراط والتفريط فهو قاصد»[6].

ويزداد معنى التوازن وضوحاً في لفظ التوسط، وذلك لما يتضمنه من معنى الاستقامة، فقد جاء الصراط المستقيم متوسطاً بين طرفين مذمومين هما:

المغضوب عليهم والضالين، كما قال الله تعالى:﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾[7]، ولا شك أن هذه الاستقامة التي توسطت

---

(1) سورة طه، الآية ٥٨.

(2) الشنقيطي: أضواء البيان. (ج٤، ص٢٨)، وانظر: البغوي: معالم التنزيل. مرجعان سابقان. (ج٣، ص٢٢١)، وعلي بن أحمد الواحدي أبو الحسن: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم– الدار الشامية، دمشق– بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، (ج٢، ص٦٩٨)،

(3) سورة لقمان، الآية ١٩.

(4) الشوكاني: فتح القدير. (ج٤، ص٢٣٩)، وانظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. (ج١٤، ص٧١)، والبيضاوي: تفسير البيضاوي. مراجع سابقة، (ج٤، ص٣٤٩).

(5) سورة التوبة، الآية ٤٢.

(6) الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج٢، ص٣٦٣).

(7) سورة الفاتحة، الآية ٦، ٧.

هذين الطرفين يمتنع معها الجنوح إلى طرف دون آخر، وهي واقعة في ذات الوقت في منتصف الأشياء بحيث تكون المسافة من الأطراف إليها متساوية ومتزنة.

المبحث الثالث

إقامة العدل و الدوام عليه

لقد جاء الأمر من الله تعالى بإقامة العدل والقسط في مواضع كثيرة من القرآن العظيم، حيث ورد اقترانهما في مواضع، وانفرادهما في مواضع أخرى، وسيسرد الباحث طائفة من هذه الآيات التي ذكر فيها كل من العدل والقسط، وذلك كما يلي:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾[2]، وفي قوله تعالى: ﴿ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ ﴾[3].

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾[4]، وفي قوله تعالى: ﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾[5]، وفي عدة المطلقة قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾[6].

ومن الآيات التي ورد فيها ذكر القسط، قول الله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[7]، وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ ﴾[9]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ ﴾[10]، وقوله:

---

(1) سورة البقرة، الآية ٢٨٢.

(2) سورة النساء، الآية ٥٨.

(3) سورة المائدة، الآية ٩٥.

(4) سورة النحل، الآية ٩٠.

(5) سورة الحجرات، الآية ٩.

(6) سورة الطلاق، الآية ٢.

(7) سورة آل عمران، الآية ١٨.

(8) سورة آل عمران، الآية ٢١.

(9) سورة النساء، الآية ١٢٧.

(10) سورة النساء، الآية ١٣٥.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ ﴾[1]، وفي أهل الكتاب من اليهود يقول الله تعالى لرسوله – ﷺ–: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ ﴾ [3]، وقال: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِۖ ﴾[4]، وقال:﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[5]، وقال تعالى:﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾[6].

فهذه طائفة من الآيات التي ورد فيها ذكر العدل والقسط، وسيتناول الباحث بيان هذين اللفظين على النحو الآتي:

أولا: أقوال المفسرين في بيان معنى العدل والقسط:

١. بيان معنى العدل:

سيستعرض الباحث في بيان معنى العدل ما قاله علماء التفسير من خلال اقتباسه لمجموعة من الآيات التي ورد فيها لفظ العدل، وذلك كما يلي:

أ- قوله تعالى: ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ ﴾[7].

قال الطبري: «يعني بالحق والإنصاف في الكتاب الذي يكتبه بينهما بما لا يحيف ذا الحق حقه ولا يبخسه ولا يوجب له حجة على من عليه دينه فيه بباطل ولا يلزمه ما ليس عليه»[8].

وقال ابن كثير: ﴿ بِٱلْعَدْلِۚ ﴾، «أي بالقسط والحق، ولا يجر في كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان»[9].

---

(1) سورة المائدة، الآية ٨.

(2) سورة المائدة، الآية ٤٢.

(3) سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

(4) سورة الأعراف، الآية ٢٩.

(5) سورة يونس، الآية ٤٧.

(6) سورة الحديد، الآية ٢٥.

(7) سورة البقرة، الآية ٢٨٢.

(8) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٣، ص١١٩).

(9) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج١، ص٣٣٦).

وقال ابن عطية: «معناه بالحق والمعدلة»[1].

وقال أبو السعود: «بالعدل: متعلق بمحذوف هو صفة لكاتب، أي كاتب كائن بالعدل، أي وليكن المتصدى للكتابة من شأنه أن يكتب بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين لا يزيد ولا ينقص»[2].

وهكذا يظهر أنه لا تعارض فيما أورده العلماء من أقوال في المعنى المراد بالعدل في الآية، فكلها تدور حول إصابة الحق من غير زيادة أو نقصان، وعدم الميل عنه بأي حال من الأحوال.

ب- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾[3].

ورد للعلماء في بيان معنى العدل في الآية أقوال عدة:

«أحدها: أن العدل هو شهادة أن لا إله إلا الله...

وقيل: إنه التوحيد وهو في معنى الأول...

القول الثاني: أنه الإنصاف وترك الجور...

والقول الثالث: أن العدل هو أن تستوي سريرة المرء وعلانيته»[4].

وقال أبو السعود: «بالعدل: بمراعاة التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط...»[5].

ج- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾[6].

قال البيضاوي: «أي وأن تحكموا بالإنصاف والسوية...»[7].

د- قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾[8].

---

(1) ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. مرجع سابق، (ج١، ص٣٧٩).

(2) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. مرجع سابق، (ج١، ص٢٦٩).

(3) سورة النحل، الآية ٩٠.

(4) أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني: تفسير القرآن. تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض- السعودية، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، (ج٣، ص١٩٥، ١٩٦).

(5) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. مرجع سابق، (ج٥، ص١٣٦).

(6) سورة النساء، الآية ٥٨.

(7) البيضاوي: أنوار التنزيل. مرجع سابق، (ج٢، ص٢٠٥).

(8) سورة البقرة، الآية ٤٨.

قيل: «والعدل هو المثل، قال الله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾[1]، أي مثله. والمراد بالعدل: هاهنا الفدية، وسميت عدلا؛ لأنها مثل المفدى به...»[2].

قال الرازي: «وأصل الكلمة من معادلة الشيء، تقول: ما أعدل بفلان أحداً، أي لا أرى له نظيراً»[3].

هـ- «وقوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾[4]، أي بالحق»[5].

ومما سبق يتبين أن العدل يعني الإنصاف الذي يحقق المعادلة والمساواة الكاملة، بحيث يمتنع معه المجاوزة في الزيادة أو النقصان، ويمتنع معه الميل كذلك إلى جهة دون جهة.

٢. بيان معنى القسط :

أ- قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[6].

قال البغوي: «ومعنى قوله: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، أي قائما بتدبير الخلق، كما يقال: فلان قائم بأمر فلان، أي مدبر له ومتعهد لأسبابه. وفلان قائم بحق فلان: أي مجاز له، فالله تعالى مدبر ورازق ومجاز بالأعمال»[7].

وقال الرازي: «ومعنى كونه ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، أي قائماً بالعدل، كما يقال: فلان قائم بالتدبير: أي يجريه على الاستقامة»[8].

ب- وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾[9].

---

(١) سورة المائدة، الآية ٩٥.

(٢) السمعاني: تفسير القرآن. مرجع سابق، (ج١، ص٧٦).

(٣) الرازي: التفسير الكبير. مرجع سابق، (ج٣، ص٥٢).

(٤) سورة الحجرات، الآية ٩.

(٥) السمعاني: تفسير القرآن. مرجع سابق، (ج٥، ص٢٢٠).

(٦) سورة آل عمران، الآية ١٨.

(٧) البغوي: معالم التنزيل. مرجع سابق، (ج١، ص٢٨٦).

(٨) الرازي: التفسير الكبير. مرجع سابق، (ج٧، ص١٧٩).

(٩) سورة الأعراف، الآية ٢٩.

قال ابن كثير: «أي بالعدل والاستقامة»[١].

وقال الزمخشري: «بالعدل، وبما قام في النفوس أنه مستقيم حسن عند كل مميز. وقيل: بالتوحيد»[٢].

وقال البيضاوي: «بالعدل، وهو الوسط من كل أمر المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط»[٣].

ج- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾[٤].

قال ابن كثير في المراد بالحكم بالقسط: «أي بالحق والعدل وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل»[٥].

د- قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾[٦].

قال أبو السعود مبينا المراد بالذين يأمرون بالقسط «أي بالعدل»[٧].

هـ- قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾[٨].

قال ابن كثير بأن المعنى المراد بالقسط: «أي بالحق»[٩].

و- قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾[١٠].

قال البيضاوي مبينا المراد بالوفاء بالقسط: أي « بالعدل والتسوية»[١١].

ز- قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[١٢].

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٢، ص٢٠٩).

(٢) الزمخشري: الكشاف. مرجع سابق، (ج٢، ص٩٥).

(٣) البيضاوي: أنوار التنزيل. مرجع سابق، (ج٣، ص١٦).

(٤) سورة المائدة، الآية ٤٢.

(٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٢، ص٦١).

(٦) سورة آل عمران، الآية ٢١.

(٧) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. مرجع سابق، (ج٢، ص١٩).

(٨) سورة يونس، الآية ٥٤.

(٩) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٢، ص٤٢١).

(١٠) سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

(١١) البيضاوي: أنوار التنزيل. مرجع سابق، (ج٢، ص٤٦٦).

(١٢) سورة الحجرات، الآية ٩.

قال ابن كثير: «أي اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط، وهو العدل إن الله يحب المقسطين»[1].

ومن خلال ما سبق عرضه من أقوالٍ لعلماء التفسير في بيان معنى القسط في الآيات التي تضمنت هذا اللفظ، يكون قد اتضح أن القسط مرادف للعدل في جميع مدلولاته.

ثانيا: وجوب إقامة العدل:

إن وجوب إقامة العدل الذي أمر الله تعالى به يتمثل في التوجيهات المتعددة للآيات القرآنية والأحاديث النبوية الآمرة بالعدل، «وهو واجب في نظر العقول قبل ورود السمع، وإنما ورد السمع بتأكيد وجوبه»[2]، فالأمر مثلا في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾[3]، وقوله:﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِ ﴾[4]، وقوله:﴿ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾[5]، يقتضي الوجوب، بل إن الله تعالى علل إنزال الكتاب والميزان من أجل إقامة العدل والقسط، كما في قوله تعالى:﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾[6].

وتأمل قوله تعالى:﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾[7].

قال الرازي: أي لا يحملنكم بغض قوم على أن لا تعدلوا، وأراد أن لا تعدلوا فيهم لكنه حذف للعلم، والمعنى: لا يحملنكم بغض قوم على أن تجوروا عليهم وتجاوزوا الحد فيهم، بل اعدلوا فيهم وإن أساءوا إليكم، وأحسنوا إليهم وإن بالغوا في إيحاشكم. فهذا

---

(1) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٤، ص٢١٢).

(2) الجصاص: أحكام القرآن. مرجع سابق، (ج٥، ص١١).

(3) سورة النحل، الآية ٩٠.

(4) سورة الأعراف، الآية ٢٩.

(5) سورة الحجرات، الآية ٩.

(6) سورة الحديد، الآية ٢٥.

(7) سورة المائدة، الآية ٨.

خطاب عام، ومعناه: أمر الله تعالى جميع الخلق بأن لا يعاملوا أحداً إلاّ على سبيل العدل والإنصاف وترك الميل والظلم والاعتساف، ثم قال تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، فنهاهم أولاً عن أن يحملهم البغضاء على ترك العدل، ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً وتشديداً، ثم ذكر لهم علة الأمر بالعدل وهو قوله:﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، ونظيره قوله:﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[1]، وفيه تنبيه عظيم على وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله تعالى، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه[2].

ولتأكيد وجوب إقامة العدل وبيان عظمة القيام به وصف الله نفسه بالقيام به، كما في قوله تعالى:﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3]، حيث قال ابن تيمية: «القيام بالقسط يكون في القول، وهو القول العدل. ويكون في الفعل، فإذا قيل: شهد قائما بالقسط: أي متكلما بالعدل مخبرا به آمرا به، كان هذا تحقيقا لكون الشهادة شهادة عدل وقسط، وهى أعدل من كل شهادة، كما أن الشرك أظلم من كل ظلم، وهذه الشهادة أعظم الشهادات..

ولفظ القيام بالقسط كما يتناول القول يتناول العمل، فيكون التقدير: يشهد وهو قائل بالقسط عامل به لا بالظلم...»[4].

فقوله وفعله –جل وعلا– عدل وقسط، وآثار عدله ظاهرة في تدبير شؤون خلقه، فكل شيء فيه جار على العدل والحكمة، فلا شيء في غير موضعه.

«وقيامه بالقسط يتضمن أنه يقول الصدق ويعمل بالعدل، كما قال:﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[5]، وقال هود: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، فأخبر أن الله على صراط مستقيم، وهو العدل الذي لا عوج فيه»[2].

---

(1) سورة البقرة، الآية ٢٣٧.

(2) أنظر: الرازي: التفسير الكبير. (ج١١، ص١٤٢، ١٤٣)، والزمخشري: الكشاف. (ج١، ص٦٤٧)، والبغوي: معالم التنزيل. مراجع سابقة، (ج٢، ص١٨).

(3) سورة آل عمران، الآية ١٨.

(4) ابن تيمية: مجموع الفتاوى. مرجع سابق، (ج١٤، ص١٧٦).

(5) سورة الأنعام، الآية ١١٥.

ولكون القيام بالعدل من أوجب الأشياء وأكثرها مشقة، فقد أجزل الله تعالى الثواب للقائمين بالعدل، حيث أخبر بذلك النبي -ﷺ- بقوله: "إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ على مَنَابِر ِمن نُورٍ عن يَمِينِ الرحمن عز وجل - وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ - الَّذِينَ يَعْدِلُونَ في حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وما وَلُوا"[٣]، وبقوله -ﷺ-: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ الله يوم الْقِيَامَةِ في ظِلِّهِ يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ..."[٤]، وقوله -ﷺ-: "وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ... "[٥]، وهذا الجزاء يجري تحصيله بالقيام بواجب العدل والقسط في سائر الأمور التي تستلزم القيام بهذا الواجب.

وقد نقل الرازي الإجماع على وجوب أن يحكم الحاكم بالعدل، بقوله: «أجمعوا على أن من كان حاكما وجب عليه أن يحكم بالعدل، قال تعالى:﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴾[٦]»[٧]؛ ذلك لأن أحوال الناس متداخلة ومتشابكة، وهذا بدوره يؤدي إلى وجود الاختلاف في شتى مجالات الحياة، ولا يمكن لهذا الاختلاف أن يزول إلا إذا وجد الحق الذي يزول به الباطل، والعدل الذي يُذهب الجور.

«وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم. ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وان كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة»[٨].

فالظلم لا مكان له في شرع الله الحنيف، فهو محرم ولا يمكن للحياة أن تستقيم معه. وقد قيل: «الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وقد قال

---

(١) سورة هود، الآية ٥٦.

(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى. مرجع سابق، (ج١٤، ص١٧٧).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو. مرجع سابق، (ج٣، ص١٤٥٨حديث رقم: ١٨٢٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة: (ج٦، ص٢٤٩٦، حديث رقم: ٦٤٢١)، ومسلم في صحيحه. مرجعان سابقان، (ج٢، ص٧١٥، حديث رقم: ١٠٣١).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عِيَاضِ بن حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ. مرجع سابق، (ج٤، ص٢١٩٧، حديث رقم: ٢٨٦٥).

(٦) سورة النساء، الآية ٥٨.

(٧) الرازي: التفسير الكبير. مرجع سابق، (ج١٠، ص١١٣).

(٨) ابن تيمية: مجموع الفتاوى. مرجع سابق، (ج٢٨، ص١٤٦).

النبي -ﷺ-: "ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي، وقطيعة الرحم"[1]. فالباغي يصرع في الدنيا وإن كان مغفورا له مرحوما في الآخرة؛ وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة»[2].

ولما يمثله العدل من خطر كبير، يأتي التوجيه النبوي حازما في تنبيه القاضي إلى وجوب التسوية في مجلس القضاء بين الخصوم، فقد جاء عن أم سلمة[3]- رضي الله عنها- زوج النبي-ﷺ- أن رسول ﷺ قال: "من ابتلي بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم في لحظه، وإشارته، ومقعده"[4]. فكل هذه التوجيهات الدقيقة تبين وجوب العدل الذي أمر به الشرع الحنيف، وشدد على القيام به. وصار المكلف الذي أُسند إليه الحكم والفصل في قضايا الناس وخلافاتهم بين أمرين خطيرين:

أحدهما: أن ينال معية الله في الدنيا، وحبه في الآخرة إذا لازم العدل.

وثانيهما: أن يتخلى الله عن توفيقه وتسديده له في الدنيا فيلزمه الشيطان، ثم يدركه بغض الله وعذابه في الآخرة، وهذا إذا لازم الجور وحاد عن العدل.

---

(1) ورد بلفظ «... وما من عمل عصى الله تعالى أعجل عقوبة من البغي واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع » من حديث أبي هريرة. أنظر: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. تحقيق: محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، (ج٣، ص١٤٨، حديث رقم: ٦٩٦٢).

(2) ابن تيمية: مجموع الفتاوى. مرجع سابق، (ج٢٨، ص١٤٦).

(3) هي أم سلمة، أم المؤمنين هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومية، بنت عم أبي جهل، وبنت عم خالد بن الوليد، بنى بها النبيﷺ في سنة ثلاث من الهجرة، وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد ﷺ، وهو أخو النبي ﷺ من الرضاعة، روت عدة أحاديث، وكانت من أجمل النساء، عاشت تسعين سنة أو أكثر، وهي آخر أمهات المؤمنين وفاة، وقد حزنت على الحسين ﷺ وبكت عليه، وتوفيت بعده بيسير في سنة إحدى وستين. أنظر: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمرى، دار الكتاب العربي، لبنان – بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م، (ج٥، ص٢٨٢-٢٨٤).

(4) أخرجه الطبراني في الكبير. (ج٢٣، ص٢٨٤، حديث رقم: ٦٢٢)، والبيهقي في سننه الكبرى. مرجعان = = سابقان، (ج١٠، ص١٣٥، حديث رقم: ٢٠٢٤٤).

وقد جاء هذا الوعيد في قول النبي –ﷺ– "إِنَّ اللَّهَ مع الْقَاضِي ما لم يَجُرْ، فإذا جَارَ تَخَلَّى عنه وَلَزِمَهُ الشَّيْطَانُ»[1]، وقوله –ﷺ–: "إِنَّ أَحَبَّ الناس إلى اللَّهِ يوم الْقِيَامَةِ وَأَدْنَاهُمْ منه مَجْلِسًا إِمَامٌ عَادِلٌ، وَأَبْغَضَ الناس إلى اللَّهِ وَأَبْعَدَهُمْ منه مَجْلِسًا إِمَامٌ جَائِرٌ "[2].

ولهذا فإن من الأدلة الدالة على وجوب العدل مذمة الظلم؛ لأن العدل نقيض له، ونهي الشرع عنه وتحريمه يستلزم وجوب نقيضه وهو العدل، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾[3]، وقال – أيضا– : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾[4]، وقال: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[5]، وقال: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾[6].

وقد جاء عن النبي–ﷺ– فِيمَا رَوَى عن اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قال: "يا عِبَادِي إني حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فلا تَظَالَمُوا... "[7]، وورد التحذير من الظلم، كما في حديث جابر بن عبدالله –ﷺ– عن النبي ﷺ قال: "اتَّقُوا الظُّلْمَ، فإن الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يوم الْقِيَامَةِ..."[8]، وجاء عن أنس بن مالك[9]–ﷺ– عن النبي–ﷺ–

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه من حديث عبد الله بن أبي أوفى: (ج٣، ص٦١٨، حديث رقم: ١٣٣٠)، وقال: هذا **حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ** لا نَعْرِفُهُ إلا من حديث عِمْرَانَ الْقَطَّانِ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه. مرجعان سابقان، (ج١١، ص٤٤٨، حديث رقم: ٥٠٦٢)، **وحسَّنَه** محمد ناصر الدين الألباني في صحيح الترغيب والترهيب. مكتبة المعارف، الرياض، ط٥، (د – ت)، (ج٢، ص٢٥٨، حديث رقم: ٢١٩٦).

(2) أخرجه أحمد في مسنده. (ج٣، ص٥٥، حديث رقم: ١١٥٤٢) والترمذي في سننه من حديث أبي سعيد. مرجعان سابقان، (ج٣، ص٦١٧، حديث رقم: ١٣٢٩)، وقال: حَدِيثُ أبي سَعِيدٍ **حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ** لا نَعْرِفُهُ إلا من هذا الْوَجْهِ.

(3) سورة الكهف، الآية ٨٧.

(4) سورة النمل، الآية ٥٢.

(5) سورة إبراهيم، الآية ٤٢.

(6) سورة الطلاق، الآية ١.

(7) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذرﷺ. مرجع سابق، (ج٤، ص١٩٩٤، حديث رقم: ٢٥٧٧).

(8) المرجع نفسه. (ج٤، ص١٩٩٦، حديث رقم: ٢٥٧٨).

(9) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدى بن عمرو بن زيد مناة بن عدى بن عمرو بن مالك بن النجار الخزرجي النجاري، كنيته أبو حمزة، قدم رسول اللهﷺ المدينة وهو بن عشر سنين، وسمى النجار؛ لأنه قتل رجلا بفأس، وهو خادم الرسول ﷺ، وتوفى رسول الله ﷺ وهو بن عشرين

قال: "الظلم ثلاثة: فظلم لا يتركه الله، وظلم يغفر، وظلم لا يغفر. فأما الظلم الذي لا يغفر: فالشرك لا يغفره الله، وأما الظلم الذي يغفر: فظلم العبد فيما بينه وبين ربه، وأما الظلم الذي لا يتركه: فيقص الله بعضهم من بعض"[1].

فترك العدل باقتراف الظلم يعرض الظالم للهلاك والخسران المبين، وهذا مما يؤكد على وجوب العدل الذي أمر به الشرع الحكيم.

ويدل على وجوب العدل – أيضاً– النهي عن الضلال، والميل، والجنف، والباطل، والبخس، والفساد...إلخ.

ثالثا: وجوب الدوام على إقامة العدل:

إن إقامة العدل يتطلب الاستمرار والدوام على ذلك، وقد أشار علماء التفسير إلى هذا الأمر عند تناولهم لتفسير الآيات التي ورد فيها ذكر العدل، وسيورد الباحث بعض هذه الدلالات، وذلك على النحو الآتي:

١. وضوح الدلالات في الآيات على وجوب استمرار إقامة العدل:

أ– قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾[2].

قال الآلوسي[3] في بيان صيغة المضارع في قوله: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ﴾،... وإيثار صيغة الاستقبال فيه وفيما بعده لإفادة التجدد والاستمرار»[4].

سنة، أمه أم سليم بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب، توفى بالبصرة سنة إحدى وتسعي، وقيل: سنة ثلاث وتسعين. أنظر: ابن حبان: الثقات. مرجع سابق، (ج٣، ص٤).

(١) أخرجه سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري الطيالسي في مسنده. دار المعرفة، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج١، ص٢٨٢، حديث رقم: ٢١٠٩)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة المختصرة، مرجع سابق، (ج٤، ص٥٦٠، حديث رقم: ١٩٢٧).

(٢) سورة النحل، الآية ٩٠.

(٣) هو محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسى،نسبة إلى جزيرة (آلوس) في وسط نهر الفرات، شهاب الدين، أبو الثناء، ولد في بغداد سنة ١٢١٧ هـ/ ١٨٠٢م، وهو مفسر، محدث، أديب، تقلد الإفتاء ببلده سنة ١٢٤٨هـ وعزل فانقطع للعلم، من مصنفاته: روح المعاني في التفسير، ونشوة الشمول في السفر إلى إسلامبول، وغيرهما، توفي في بغداد سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م. أنظر: الزركلي: الأعلام. مرجع سابق، (ج٧، ص١٧٦).

(٤) الآلوسي: روح المعاني. مرجع سابق، (ج١٤، ص٢١٧).

ب– قوله تعالى:﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾[1].

بيَّن القرطبي الدلالة على الدوام والاستمرار في الآية قائلا: «قوامين: بناء مبالغة، أي ليتكرر منكم القيام بالقسط، وهو العدل»[2].

وقال البيضاوي: «أي مواظبين على العدل مجتهدين في إقامته»[3].

وقال الآلوسي في تفسيره: «﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾، أي مواظبين على العدل في جميع الأمور، مجتهدين فى ذلك كل الاجتهاد لا يصرفكم عنه صارف.

وعن الراغب: أنه –سبحانه– نبه بلفظ القوامين على أن مراعاة العدالة مرة أو مرتين لا تكفى، بل يجب أن تكون على الدوام، فالأمور الدينية لا اعتبار بها ما لم تكن مستمرة دائمة، ومن عدل مرة أو مرتين لا يكون في الحقيقة عادلا، أي لا ينبغي أن يطلق فيه ذلك»[4].

وقال السعدي: «والقوَّام صيغة مبالغة، أي كونوا في كل أحوالكم قائمين بالقسط الذي هو العدل في حقوق الله وحقوق عباده»[5].

٢. بيان السنة في استمرار إقامة العدل.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[6]، فمن بيان السنة:

أ– عن أبي هريرة–ﷺ–عن النبي–ﷺ– قال: " كُلُّ سلامى من النَّاس عليه صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فيه الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بين الناس صَدَقَةٌ "[7].

فدلالة الاستمرار على إقامة العدل الواردة في الحديث هي متمثلة في اللفظ: (كل يوم)، حيث يقوم الصلح والعدل بين الناس مقام تقديم الصدقة عن اليوم المتصدق فيه بأي صدقة من الصدقات، وذلك على الدوام.

---

(١) سورة النساء، الآية ١٣٥.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. مرجع سابق، (ج٥، ص٤١٠).

(٣) البيضاوي: أنوار التنزيل. مرجع سابق، (ج٢، ص٢٦٥).

(٤) الآلوسي: روح المعاني. مرجع سابق، (ج٥، ص١٦٧).

(٥) السعدي: تيسير الكريم الرحمن. مرجع سابق، (ج١، ص٢٠٨).

(٦) سورة النحل، الآية ٤٤.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٢، ص٩٦٤، حديث رقم: ٢٥٦٠).

ب- الدلالة الواردة في قول النبي-ﷺ-: " ما من عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ الله رَعِيَّةً يَمُوتُ يوم يَمُوتُ وهو غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إلا حَرَّمَ الله عليه الْجَنَّةَ "[1].

فقد دل الحديث على أن الرعاية للشيء تستلزم الاستمرار في تعهده في كل الأوقات، وأن القيام بالعدل في إصلاح هذه الرعية هي من أولويات الرعاية الواجبة على كل من استرعاه الله تعالى أي رعية، فهو مسئول عن ذلك ما دامت المسؤولية قائمة عليه، فإذا قصر في بذل الجهد المستمر في إصلاح شأن هذه الرعية وفق العدل الذي أمر الله به، فإنه سيكون غاشا لرعيته، وسيعرض نفسه يوم القيامة للحرمان من دخول الجنة.

٣. الدوام على العدل واستمراره مسألة بدهية:

لا شك أن الدوام على العدل والقسط هو مسألة مفروغ منها يعقلها عامة المسلمين ولا يجهلها منهم أحد، فقد كانت هي الأساس الذي ساس بها خلفاء المسلمين عامة الناس في حكمهم، فقد «كتب عمر بن الخطاب -ﷺ- إلى الناس: اجعلوا الناس عندكم في الحق سواء قريبهم كبعيدهم، وبعيدهم كقريبهم، وإياكم والرشا، والحكم بالهوى، وأن تأخذوا الناس عند الغضب. فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار»[2].

ولكون الدوام على العدل مسألة بدهية في صلاح أحوال الناس، فقد «قال بعض الحكماء: العدل ميزان الله، فلذلك هو مبرأ من كل ميل وزيل»[3].

ولذا امتن الله تعالى على عباده بأن نصب لهم السلطان في الأرض ليدفع الظلم عن المظلومين، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[4].

وهذا مما يدل على دوام العدل واستمراره في كل الأحيان وفي كل الأحوال.

رابعا: أمثلة تطبيقية من سلف الأمة على إقامة العدل:

---

(1) أخرجه مسلم من حديث مَعْقِلَ بن يَسَارٍ الْمُزَنِيَّ. مرجع سابق، (ج٣، ص١٤٦٠، حديث رقم: ١٤٢).

(2) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى. مرجع سابق، (ج١٠، ص١٣٥، حديث رقم: ٢٠٢٤٩).

(3) أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف، القاهرة، طبعة بدون ترقيم، (د - ت)، (ج١، ص٣٤).

(4) سورة البقرة، الآية ٢٥١.

هناك الكثير من الأمثلة التطبيقية التي تبين قيام الأمة بواجب العدل ومداومتها عليه، ومن ذلك ما روته عَائِشَةَ[1]- رضي الله عنها -: " أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ التي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فيها رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عليه إلا أُسَامَةُ بن زَيْدٍ[2] حِبُّ رسول -ﷺ-، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فقال رسول اللَّهِ -ﷺ-: أَتَشْفَعُ في حَدٍّ من حُدُودِ اللَّهِ ؟ ثُمَّ قام فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قال: إنما أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إذا سَرَقَ فيهم الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عليه الْحَدَّ. وأيم اللَّهِ لو أَنَّ فَاطِمَةَ[3] بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا "[4].

ألا ترى أن النبي-ﷺ- يقيم الحدود في حياته بعدالة كاملة من غير تمييز بين شريف ووضيع، ولا يحول عن إقامتها شفاعة شافع مهما بلغت منزلته. بل يقسم بالله تعالى لو أن ابنته سرقت لقطع يدها، ولا يمنعه من ذلك كونها ابنة محمد- ﷺ - فكيف بمن هو دون الزهراء – رضي الله عنها – ألا يقام عليه القصاص العادل!.

وانظر بالمقابل إلى اليهود يبتدعون لأنفسهم أحكاماً غير التي شرعها الله لهم، فيضعون بدلاً عن الرجم لمن وقع في جريمة الزنا: الجلد والتحميم. مع أن الحكم موجود في كتابهم وهم يعرفونه، لكنهم تركوه بسبب كثرة وقوع أشرافهم في الزنا.

ولما علم النبي بهذا الأمر أقام حد الله على اليهودي المحمم الذي مروا به عليه، فأحيا أمر الله الذي أماتوه. ولم يلبث الوحي أن نزل مؤيدا له في ذلك.

---

(1) هي عائشة بنت أبى بكر الصديق رضي الله عنهما، كنيتها أم عبد الله، زوجة رسول الله ﷺ، وأم المؤمنين الصديقة بنت الصديق، حبيبة رسول الله ﷺ، المبرأة من فوق سبع سماوات، وأم عائشة هي أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس، وقبض رسول الله ﷺ إلى جنته وهي بنت ثمان عشرة سنة، وماتت سنة سبع وخمسين في ولاية معاوية. أنظر: ابن حبان: الثقات. مرجع سابق، (ج٣، ص٣٢٣).

(2) هو أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن زيد بن امرئ القيس بن عامر بن النعمان بن عامر الكلبي، الحب بن الحب، يكنى أبا محمد، ويقال: أبو زيد، مات النبي ﷺ وله عشرون سنة، وقيل: ثماني عشرة، أمره النبي على جيش عظيم فمات النبي ﷺ قبل أن يتوجه، فانفذه أبو بكر، واعتزل أسامة الفتن بعد قتل عثمان إلى أن مات في أواخر خلافة معاوية بالجرف سنة أربع وخمسين. أنظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة. مرجع سابق، (ج١، ص٤٩).

(3) هي فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ ، أم الحسنؓ، سيدة نساء هذه الأمة، تزوجها عليؓ في السنة الثانية من الهجرة، وماتت بعد النبي ﷺ بستة أشهر، وقد جاوزت العشرين بقليل. أنظر: تقريب التهذيب، مرجع سابق، (ج١، ص٧٥١).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٣، ص١٢٨٢، حديث رقم: ٣٢٨٨).

فقد جاء في الصحيح عن الْبَرَاءِ بن عَازِبٍ[1] -ﷺ- قال: "مُرَّ على النبي -ﷺ- بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا مَجْلُودًا، فَدَعَاهُمْ ﷺ، فقال: هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي في كِتَابِكُمْ ؟ قالوا: نعم، فَدَعَا رَجُلاً من عُلَمَائِهِمْ، فقال: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ الذي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ على مُوسَى أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي في كِتَابِكُمْ ؟ قال: لا. وَلَوْلا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بهذا لم أُخْبِرْكَ. نَجِدُهُ الرَّجْمَ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ في أَشْرَافِنَا، فَكُنَّا إذا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ، وإذا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عليه الْحَدَّ. قُلْنَا: تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ على شَيْءٍ نُقِيمُهُ على الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ، فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ[2] وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ، فقال رسول اللَّهِ -ﷺ-: اللهم إني أَوَّلُ من أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَأَنْزَلَ الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ ﴾[3]، يقول: ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ فَخُذُوهُ، وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوا، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى:﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[4]،﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[5]، ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[6] في الْكُفَّارِ كُلِّهَا"[7].

فإن قيل: هذا محمد رسول الله -ﷺ- وليس غريباً أن يحصل منه هذا العدل، فيقال لهم: فهذا رجل من أصحابه، وهو الخليفة الثاني من بعده كان له مع العدل شأن أيضاً، وله مواقف عديدة تبين قيامه بالعدل وأمره به. فقد «كان عمر بن الخطاب -ﷺ- يأمر عماله أن يوافوه بالموسم. فإذا اجتمعوا، قال: أيها الناس إني لم أبعث

---

(1) هو البراء بن عازب ابن الحارث، أبو عمارة الأنصاري الحارثي المدني، هو وابن عمر لدة، واستصغر يوم بدر، كان من أعيان الصحابة وأبوه من قدماء الأنصار، روى حديثا كثيرا، وشهد غزوات كثيرة مع النبي ﷺ، نزيل الكوفة، توفي سنة اثنتين وسبعين، وقيل: إحدى وسبعين، عن بضع وثمانين سنة. أنظر: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله: سير أعلام النبلاء. تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٤١٣هـ، (ج٣، ص١٩٤، ١٩٥).

(2) حممه تحميما: سخم وجهه بالفحم، والحمم: الرماد والفحم وكل ما احترق من النار. أنظر: الرازي: مختار الصحاح. مرجع سابق، (ج١، ص٦٦).

(3) سورة المائدة، الآية ٤١.

(4) سورة المائدة، الآية ٤٤.

(5) سورة المائدة، الآية ٤٥.

(6) سورة المائدة، الآية ٤٧.

(7) أخرجه مسلم في صحيحه. مرجع سابق، (ج٣، ص١٣٢٧، حديث رقم: ١٧٠٠).

عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم. إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم وليقسموا فيئكم بينكم، فمن فعل به غير ذلك فليقم؟ فما قام أحد إلا رجل واحد قام، فقال: يا أمير المؤمنين إن عاملك فلانا ضربني مائة سوط، قال: فيم ضربته؟ قم فاقتص منه. فقام عمرو بن العاص[1] -ﷺ-، فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك. فقال: أنا لا أقيد! قد رأيت رسول الله -ﷺ- يقيد من نفسه! قال: فدعنا فلنرضه، قال: دونكم فأرضوه، فافتدى منه بمائتي دينار، كل سوط بدينارين»[2].

ويرجع هذا الحزم في تطبيق العدل على القريب والبعيد، والشريف والوضيع، للعلم بما سيترتب على التفريط فيه من مأزق كبير لا فكاك منه إلا بالعدل وحده، فقد جاء عن أبي هُرَيْرَةَ -ﷺ- عَنِ النبي -ﷺ- قال: " ما من أَمِيرِ عَشَرَةٍ إلا يُؤْتَى بِهِ يوم الْقِيَامَةِ مَغْلُولاً لاَ يَفُكُّهُ إِلاَّ الْعَدْلُ، أو يُوبِقُهُ الْجَوْرُ "[3].

ولهذا يتجلى الحرص على القيام بواجب العدل في هذه الأمة ابتداءً بأعلى رجل فيها، وانتهاء بعامة أفرادها، الأمر الذي يعكس عمق العدل وتمكنه في سلف هذه الأمة، وهذا هو ما تدعو الحاجة إلى مراجعته في زماننا الحاضر.

خامسا: دلالات التوازن في العدل:

---

(1) هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم السهمي، أبو محمد، وقيل: أبو عبد الله، من دهاة قريش، كان يسكن مكة مدة، ولما ولى مصر واستوطنها إلى أن مات بها ليلة الفطر سنة إحدى وستين. أنظر: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي: مشاهير علماء الأمصار. تحقيق: م. فلايشهمر، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة بدون ترقيم، ١٩٥٩م، (ج١، ص٥٥).

(2) محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري: الطبقات الكبرى. دار صادر، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٣، ص٢٩٣، ٢٩٤).

(3) أخرجه أحمد في مسنده. مرجع سابق، (ج٢، ص٤٣١، حديث رقم: ٩٥٧٠)، وأبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني في المعجم الأوسط. تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ، (ج٦، ص٢١٦، حديث رقم: ٦٢٢٥)، والبيهقي في سننه الكبرى. (ج٣، ص١٢٩، حديث رقم: ٥١٢٨)، وأورده الألباني في صحيح الترغيب والترهيب. مرجعان سابقان، (ج٢، =
= ص٢٥٨، حديث رقم: ٢١٩٨)، وقال عنه: حسن صحيح.

هناك دلالات متعددة للتوازن يتضمنها لفظ العدل، وسيشير الباحث إلى بعضها باختصار من خلال ما دلت عليه بعض الآيات التي نبهت على العدل، وذلك في ضوء ما قاله علماء التفسير من بيان لبعض الألفاظ التي يتضمنها العدل، وهي واضحة الدلالة على التوازن، وذلك كما يلي:

١. من الدلالة على التوازن في لفظ العدل تسميته بالميزان، كما في قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾[١].

فالميزان المذكور في الآية كما «قال ابن عباس وغيره: يعني العدل ...»[٢].

وعلى أن الميزان: العدل والإنصاف، فآلة الوزن داخلة فيه؛ لأن الوزن بالقسط عدلٌ وإنصافٌ، وبهذا يكون مدلول التوازن في العدل أكثر وضوحا.

٢. تسمية العدل بالحق، كما في قوله تعالى: « ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ [٣]، أي جزاء أعمالهم بالعدل»[٤]، ومن المعلوم أن الحق يعني المطابقة، أي مطابقة الحق للاستحقاق من دون زيادة ولا نقصان.

٣. تضمن القول السديد للقول العدل، كما في قوله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[٥]، قال النسفي: أي «صدقا وصوابا، أو قاصدا إلى الحق. والسداد: القصد إلى الحق والقول بالعدل...، والبعث على أن يسددوا قولهم ليس في باب بعينه، وإنما في كل باب؛ لأن حفظ اللسان، وسداد القول رأس كل خير»[٦].

وبتضمن العدل لمعنى السداد تتضح دلالة التوازن فيه.

---

(١) سورة الشورى، الآية ١٧.

(٢) الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل. مرجع سابق، (ج٤، ص١٩).

(٣) سورة النور، الآية ٢٥.

(٤) الشنقيطي: أضواء البيان. (ج١، ص٦)، وانظر: البيضاوي: تفسير البيضاوي. (ج٤، ص١٨١)، وابن الجوزي: زاد المسير. مراجع سابقة، (ج٦، ص٢٦).

(٥) سورة الأحزاب، الآية ٧٠.

(٦) النسفي: تفسير النسفي. (ج٣، ص٣١٧)، وانظر: جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي: تفسير الجلالين. (ج١، ص٥٦١)، والآلوسي: روح المعاني. مراجع سابقة، (ج٢٢، ص٩٥).

٤. دلالة السواء على العدل، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾[١]، فقد بين الطبري المعنى المراد بالسواء بقوله: «يعني إلى كلمة عدل بيننا وبينكم...»[٢]، والسواء معنى ظاهر في التوازن.

٥. تضمن الوسط لمعنى العدل، كما في قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[٣] «أي خيارا عدولا...»[٤].

فالعدل وسط بين الأطراف، ومسافة الأطراف إليه متساوية، فلا يميل إلى طرف أكثر من غيره، بل يتوسط مكانه بينها بالقسطاس المستقيم، وهو بتضمنه لوصف الوسط تظهر فيه دلالة التوازن بصورة جلية.

٦. الدلالة على معنى القصد والاعتدال، كما في قوله تعالى:﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾[٥]، «أي اعتدل فيه ولا تتسرع إسراعا يدل على البطش والخفة، ولا تبطئ إبطاء يدل على الفخر والكبر»[٦].

ومن خلال ما تم سرده من المعاني المتعددة للتوازن في لفظ العدل، يتبين وضوح دلائل التوازن فيه بجلاء كامل.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٤.

(٢) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٣، ص٣٠٢).

(٣) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

(٤) الشنقيطي: أضواء البيان. (ج١، ص٤٥)، وانظر: ابن عطية: المحرر الوجيز. (ج١، ص٢١٩)، والسمرقندي: بحر العلوم. مراجع سابقة، (ج١، ص١٢٦).

(٥) سورة لقمان، الآية ١٩.

(٦) الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل. (ج٣، ص١٢٧)، وانظر: النسفي: تفسير النسفي. (ج٣، ص٢٨٤)، والشوكاني: فتح القدير. مراجع سابقة، (ج٤، ص٢٣٩).